

اندر به کریتون

# روسو

حیاته - فلسفته - مُنتخبات

ترجمه

نبیه صقر







روسو  
حیاتہ . فلسفہ . منتخبات



اندر به کرسون

روسو

حیاتہ - فلسفہ - مَنخبات

ترجمہ

نبیہ صقلم

منشورات عوبدانت  
بٹروت - بہاریہلی

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار  
منشورات عويدات  
بيروت - باريس  
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية  
Presses Universitaires de France

الطبعة الرابعة ١٩٨٨

## حياته

« هوذا أوصاف رجل رُسمت طبقاً لطبيعتها ،  
ولكامل حقيقتها ؛ انها الصورة الوحيدة من نوعها التي  
توجد الآن ، وربما في كل زمان ومكان » .  
هكذا تبدأ « اعترافات » جان جاك روسو ؛ ولا  
شك في ان سيرة حياته هذه تتضمن وثائق شخصية  
لا شبيه لها في سائر السير التي نُشرت حتى الآن ؛  
والى هذه الوثائق سوف نلجأ لكي نرسم حياة جان  
جاك روسو ، مع احتفاظنا ببعض التصحيحات  
والاضافات اللازمة .

## ١ - روسو حتى ذهابه الى باريس

( ١٧١٢ - ١٧٤١ )

رأى جان جاك روسو النور في مدينة جنيف في ٢٨ حزيران سنة ١٧١٢ . كانت عائلته من اصل فرنسي : فاحد اجداده ، ديديه روسو ، كان قد هاجر مع عائلته ، خلال الحروب الدينية ، من مدينة مونليري الى جنيف ؛ اما والد جان جاك ، اسحق روسو ، فكان ساعاتياً ومعلم رقص في آن واحد ؛ وكان قد اقترن بالفتاة سوزان برنار ، وهي مواطنة من جنيف - كما كان هو ، ايضاً ، مواطناً من المدينة ذاتها - فولدت له ابنها البكر فرنسوا . وبعد ولادة هذا الصبي بقليل ، ذهب والده في طلب الرزق الى القسطنطينية حيث اقام ستة اعوام ثم عاد الى جنيف سنة ١٧١١ ؛ وفي السنة التالية ، توفيت زوجته بعد ثمانية ايام من وضعها ولدها الثاني جان جاك : « ولدت ضعيفاً ومريضاً ، وقد دفعت والدتي حياتها ثمن ولادتي ، هذه الولادة التي كانت أولى مصائبي » .

دفع الطفل الى عمته سوزان لكي تعتني به ، فربته بكل عناية وتقان .

لم يكن الوالد اهلاً للسهر على تثقيف اولاده: فلكي  
يرن جان جاك على القراءة ، وهو لم يتجاوز ، بعد ،  
السنة السادسة من العمر ، كان يطلب اليه ان يقرأ  
بصوت عالٍ قصصاً كانت والدته قد قرأتها ؛ وكانت  
اللياني تمر على هذا النسق . « والدي يقول  
بنجمل وقد سمع اصوات السنونو تحيي الصباح: لنذهب ،  
الآن ، الى النوم ، اني طفل اكثر منك » . وحينما  
أتيا على قراءة جميع القصص الموجودة ، اصبحت  
المطالعة اكثر رصانة ، مستعيرة كتب الجد ، وهو قيس  
بروتستاني ذو تفكير وذوق : هذه الكتب هي :  
« خطاب عن التاريخ العام » تأليف بوسويه ،  
« محاورات الموتى » تأليف فونتنيل ، و« التحولات »  
تأليف أوفيد ، وبعض قطع من مولير ، ثم تأليف  
بلوتارك .

لقد اثرت هذه المطالعات تأثيراً واضحاً في نمو  
ثقافة جان جاك . قال : « لقد عرفت الشعور قبل  
ان اعرف التفكير ؛ هذا نصيب البشر المشترك ،  
ولكنه كان نصيبي اكثر من غيري ... لقد اكتسبت ،  
بهذا المنهاج الخطر ... فهما فريداً ، بالنسبة الى عمري ،

وذلك في ما يتعلق بالميلوال والإهواء . لم يكن تصوري  
الاشياء قد بدأ ، حينما كنت قد تمرست بجميع العواطف  
والاحاسيس . لم اكن قد فكرت بشيء ، ولكنني كنت  
قد أحسست بكل شيء .

إن كان والد جان جاك وعمته قد اعتنيا به ، فانهما  
قد أهملتا العناية بالأبن الثاني ، فرانسوا ، الذي كان  
يكبر اخاه بسبع سنين ، فترك البيت الوالدي سنة  
١٧٢١ ، وكان هذا آخر العهد به .

بعد دخول اسحق روسو مشاجرة عنيفة واعتدائه  
بالضرب على الغير ، وهرباً من ملاحقة العدالة له ، فر  
من جنيف الى نيون على ضفاف بحيرة ليان وأقام هناك ؛  
اما جان جاك فقد وُضع في مدرسة داخلية عند  
القسيس البرتستاني لامبرسيه ، في بوساي ، الواقعة على  
سفح جبل سالف ، حيث وجد رفيقاً له في دروسه  
والعابه ، وهو احد انسابائه المدعو برنار . كانت الحياة  
في بوساي ثلاثم كل الملاممة جان جاك : « لم يكن  
ينقص تلك الحياة الا ان قدوم اكثر لكبي تترسخ في  
ظلمها اسس اخلاقي » . « كان هدي في الوحيد ، آنذاك ،  
ان أحبب بي كل من يقترب مني » .

بالحقيقة ، عرف استاذہ ، لامبرسيہ ، ان يولعه  
بالدرس ، وان يقدق عليه المواعظ الاخلاقية ، وان  
يشفيه من بعض الشوائب النفسية . كانت الانسة  
لامبرسيہ ، اخت القسيس ، قد اكتسبت محبة جان جاك  
واصبح يخشى ، اكثر ما يخشى ، ان يفعل ما يفيظها . مع  
ذلك ، كان يحدث ان تغضب منه وتقاصه . وقد اتفق ان  
أجرت عليه ، ذات يوم ، قصاصاً يدوياً قال عنه في  
« اعترافاته » انه شعر ، « مع الوجع الذي سببه له  
هذا القصاص ، بشهوة جنسية جعلته يرغب في احتمال  
مثله اكثر مما يخشاه » .

بقي جان جاك في مدرسة بوساي الداخلية سنتين .  
و ذات يوم ، اتهموه ، ظلماً ، بانه كسر مشطاً للآنسة  
لامبرسيہ ، وعاقبوه عقاباً صارماً : « ان هذا الاحساس  
الاول بالعنف والظلم ظل هكذا راسخاً في نفسي حتى  
ان كل ما كان يذكرني به كان يبعث ، مجدداً ، هذا  
الاحساس المرير في نفسي ... وحتى ان قلبي كان  
يضطرم غيظاً وحنقاً لدى مشاهدتي اي عمل ظالم ، او  
لدى سماعي به ... كأن هذا الظلم واقع علي ، انا ،  
ذاتي » .

أعاد العم برنار جان جاك الى جنيف حيث بقي  
بضعة اشهر بانتظار ما سيقروونه بشأنه ؛ وبما ان والده  
كان في نيون ، فقد ذهب لزيارته ، ولكنه لم يُقم  
عنده طويلا .

فكّر جان جاك بان يصبح قسيساً بروتستانتيّاً؛  
لكن ذويه ارادوا ان يتخذ مهنة يدوية ، فوضعه عند  
النقاش دو كومان الذي تكفل بان « يربيه ويثقفه  
لكي يعيش بخوف الله كما يليق برب عائلة » . كان  
دو كومان مستهتراً ، غنياً ، اناجياً ، فنفر منه جان  
جاك ؛ « ان استبداد معلمي كثرهني في النهاية بالشغل  
الذي كنت مستعداً لان أحبه ، وأورثني النقائص التي  
كنت مستعداً لان اكرهها » . 'جوع الصبي حتى  
اضطّر' ، اولاً ، الى سرقة الطعام ، ثم تطرق الى  
سرقة أشياء كان يبيعها ؛ لكنه كان قد أولع بالمطالعة  
ولما شديداً . لاحظ معلمه انه يقرأ في اوقات الشغل  
فعاقبه بقساوة دفعته الى ان يعيش « منطوياً على ذاته  
اكثر فاكثرا » كما يقول .

بيد انه كان يُتاح له ، ايام الاحاد ، ان يتنزه مع  
بعض الرفاق في الحقول البعيدة ، حتى اتفق له ، مرتين ،

ألا يعود إلا وقد أُغلقت ابواب المدينة فيلاقي التوبيخ والعقاب ؛ اما في المرة الثالثة ، فلم يشأ ان يعود الى معلمه ، وعزم على ترك جنيف .

هوذا ، اذن ، جان جاك هائماً على وجهه في الحقول في ١٤ اذار سنة ١٧٣٨ ؛ لكنه لم يبتعد كثيراً عن جنيف . وفي مدينة كوفينيون ، دعاه الأب بونفير الى الغداء معه ، ولربما كان سبب هذه الدعوة ان الأب بونفير وجد فرصة ليخلص نفسه ؛ لذلك أعطى جان جاك رسالة توصية الى سيده محسنة تقيم في مدينة أنسي ، وكانت هذه السيدة مدام دي وارانس .

وصل روسو الى أنسي يوم احد الشعانين ، وكانت مدام دي وارانس قد خرجت لكي تحضر صلاة العيد ، فذهب جان جاك للالتقاء بها ؛ وبينما كان ينتظر ان يجد « سيدة هرمة ، متعبدة ، صارمة » فقد وجد « وجهاً معجوناً باللطف ، وعينين زرقاوين ممتلئتين عذوبة ، وبشرة صافية ، مشرقة ، وهماجة » . قدّم لها رسالة التوصية بعد ان أضاف اليها طلباً مكتوباً بخط يده . قرأت الرسالة والطلب وارسلت جان جاك الى بيتها لكي يتناول طعاماً بانتظار وصولها .

كانت مدام دي وارانس بروتستانتية، وقد تزوجت في سن مبكرة ، ولم تتوفق في حياتها الزوجية التي دامت نحو اثني عشرة سنة ، حتى أنهتها بالرحيل المفاجيء الى مدينة (إفيان Evian) حيث التجأت الى اميديه ملك سردينيا ، طالبة منه حمايتها ، ومعلنة له رغبتها في اعتناق المذهب الكاثوليكي . امر لها الملك بمعاش ، وارسلها المنسيور برناكس ، اسقف أنسي ، الى دير «الزيارة» حيث اقامت بضعة ايام، ثم منحها من سر العباد ؛ حينئذ مكثت في انسي ، بجمي من انتقام زوجها .

لم تكن مدام دي وارانس لتستطيع ان تحتفظ بجان جاك بالقرب منها ، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر ، لكي 'تعدّه' لجدد المذهب البروتستانتي ؛ لذلك قرر المونسنيور برناكس ان يرسله الى مأوى في مدينة توران 'معدّ' لتعليم طلاب المهاد .

راقت الرحلة جان جاك عبر جبال الألب ولاءمت مزاجه المتشرد فكانت له ، مع اثنين من الرفاق ، نزهة حقيقية .

دخل جان جاك مأوى توران في نيسان سنة ١٧٢٨ ،

وفي ٢١ آب ، جحد البروتستانتية ؛ وقد بلغت الصدقة التي جمعوها له ، حسب العادة ، اكثر من عشرين فرنكاً ذهباً ، فمكّن هذا المبلغ روسو من استعادة حريته .

بما انه كان محصوراً منذ اكثر من شهرين ، فقد شعر بسعادة كبرى حينما استنشق نسيم الحرية ، وظن انه اصبح غنياً . بعد ان تمتع بضعة ايام باستقلاله ، رأى ثروته قد ذابت ، فحاول ان يكسب معيشته بممارسة مهنته كمنقّاش ؛ ولكن ، لم يشغله احد .

ولحسن الحظ ، وجد له الشخص الذي كان نازلاً عنده وظيفة سكرتير عند مدام فرسليس ، لانها كانت قد اصبحت لا تستطيع ان تكتب الا بكل صعوبة ، ولذلك كانت تضطر الى إملاء رسائلها . ولكن هذه السيدة المسنة توفيت بعد ثلاثة اشهر من دخول جان جاك في خدمتها ؛ اما وريث املاكها ، المدعو السيد دي لاروك ، فقد طرد جان جاك على اثر وقوع حادث مؤسف ، وزوده ببعض المال : كان روسو قد استحل أخذ وشاح مفضض كان للسيدة فرسليس ؛ وحينما وجدوا هذا الشاح مع أمتعته ، لم يشأ ان يعترف

بانه هو الذي اخذه ، بل قال ان فتاة خادمة ، تدعى ماريون ، قد اعطته اياه . وحينما قابلوا بين المتهمين ، انكرت ماريون ، بحزم ، قول جان جاك ، واستقرت التهمة عليه نهائياً . طرد السيد دي لاروك الاثنين معاً قائلاً ان ضمير السارق هو الذي سينتقم للبريء . وقد كتب روسو يقول : « لم تذهب نبوءته سدى ، فهي لا تزال تتحقق حتى الآن ، يوماً بعد يوم » .

اصبح جان جاك من العمر سبع عشرة سنة ، وها هو لا يملك شروى نقير ، ولكنه يسعى بكل قواه لكي يعمل على كسب معيشته ، ولكي يبلغ الى المقام الذي كان يظن انه جدير به . ثم اتفق له ان التقى كاهناً تقياً ، اصله من مقاطعة سافوى ، يدعى الاب غام ؛ وقد بيّن هذا الكاهن الورع لان جان جاك بطلان ايجاد هذا العالم : « لقد قال لي كلاماً ما برح ، طول حياتي ، يتردد في ذاكرتي ، وهو انه : لو كل انسان يستطيع ان يقرأ في قلوب الناس جميعاً ، لكان وجد ان الذين يريدون ان ينحدروا اكثر من الذين يريدون ان يصعدوا » . وهذا الاب غام هو الذي اتخذه روسو ، في ما بعد ، مثلاً لكي يكتب في الجزء الرابع من كتابه

«أميل» (Emile) : « اعلان عقيدة النائب الاسقفي  
( La Profession de foi du Vicaire  
Savoyard )

بعد بذل مساع كثيرة ، توفق روسو الى الحصول  
على وظيفة حاجب عند الكونت دي غوفون ، وهو  
شيخ لطيف المعشر كان يسكن مع والده الاب دي  
غوفون . اهتم هذا الاب بجان جاك وأخذ يسدي اليه  
بنصائح جد مفيدة ؛ ولكن الفتى روسو كان مصاباً -  
كما قال ، هو ، - بداء التجؤل ؛ فعالما التقى احد  
الرفاق القدماء ذاهباً الى سويسرا ، لم يتمالك عن  
الذهاب برفقته .

بدأت الرحلة بالفرح ولكنها انتهت بالكدر : فما  
وصل الرفيقان الى أنسي حتى افترق رفيق جان  
جاك عنه وتركه لمصيره ، فاضطر الى طلب المساعدة من  
مدام دي وارانس التي قبلته عندها كضيف . كانت  
الايام القليلة التي قضاها عند مضيفته تمتلئة غبطة . كان  
جان جاك يدعو مدام دي وارانس « ماما » لقد  
كنت قضيت ، هكذا ، حياتي كلها ، وحتى الأبدية ،  
من غير ان اشعر بالضجر ولو لحظة واحدة .»

لم تشأ مدام دي وارانس ان تستبقي عندها هذا  
الفتى ، فادخلته احدى المدارس الاكليريكية ؛ ولكن ،  
بعد اختبار اربعة اشهر ، تحقق ان جان جاك لن  
يصبح ، يوماً من الأيام ، كاهن قرية ؛ وبما انه لم يكن  
يهم الا للموسيقى ، فقد استحصلوا له على وظيفة مساعد  
في جوق موسيقى الكاتدرائية . اضطر رئيس الجوق  
الى ترك المدينة فنصحت مدام دي وارانس جان جاك بان  
يرافقه ؛ حينما وصل الاثنان الى ليون ، اعترى رفيق  
روسو نوبة اغماء ، وبدلاً من ان يعتني به ، تركه لحاله  
وعاد الى أنسي : لم يكن يرى له من سعادة سوى  
العيش بالقرب من مجرته ؛ ولكن ، حينما وصل الى  
أنسي ، كانت قد سافرت الى باريس .

بعد بضعة ايام من يأس عميق ، قبل روسو بان  
يذهب الى مدينة فريبورغ ، في سويسرا ، برفقة وصيفة  
لمدام دي وارانس كانت عائدة الى بلادها . ذهب الرفيقان  
مشياً على الاقدام حتى جنيف حيث كان روسو يعود  
للمرة الاولى بعد تغربه : « لم اكن ذاهباً لأرى احداً ،  
هناك ، ولكنني كاد يُغمى علي عند اجتياز الجسور... » .  
كان لا بد من المرور بمدينة نيون : « أيمكنني ان امر

بمدينة نيون ولا اذهب فارى والدي ! لو اني تجرأت  
على امال هذا الواجب المقدس ، لكنت مت من  
الندم ... قصدت ، اذن ، ان اراه معها كلفني الامر ...  
آه ! كم من الدموع زرفنا ونحن نتعانق ! . وعد  
جان جاك اباه بان يأتي فيراه ثانية بعد عودته ! ولكنه ،  
حينما وصل الى فريبورغ وأودع وصيفة مدام دي وارانس  
عائلتها ، عاد ادراجه باتجاه لوزان بدلاً من ان يذهب  
الى نيون : « اردت ان اشبع من رؤية تلك البحيرة التي  
كنت اراها تنبسط ، هناك ، على طول مداها ...  
كان من شأن اقل متعة استطيع الوصول اليها  
ان تغريني اكثر من افراح الجنة » .

لم يبق مع روسو درهم واحد ، ولم يكن يتقن  
فن الموسيقى اتقاناً كافياً لكي يستطيع التأليف في هذا  
الفن ؛ ومع ذلك ، فقد ادعى الكفاءة ، والثف  
قطعة موسيقية ، وعمل على ان تعزف في احدى  
الحفلات ، فسقطت الى الحضيض ؛ وبالرغم من هذا  
الفشل ، فقد استطاع ان يحتفظ بتلميذين او ثلاثة يلقنهم  
دروساً موسيقية لمدة بضعة أسابيع ؛ ثم سافر الى  
مدينة نوشاتيل حيث جمع بعض التلامذة ؛ ولكنه لم

يطلب به الامر حتى كتب الى والده يشكو له الفاقة التي كان يتخبط فيها ، ويطلب منه مساعدة مالية .

اتفق لروسو ان تعرف الى اسقف يوثاني ، وهو ارشمندريت من القدس كان يجمع تبرعات للقبر المقدس ، فاتخذ روسو سكرتيراً له في تجواله ؛ فزارا مدن فريبورغ ، و برن ، وسولور . هنا ألقى سفير فرنسا ، موسيو دي بوناك ، القبض على اليوثاني الذي لم يكن سوى محتال ؛ اما روسو ، فقد تأكد السفير من براءته وارسله الى باريس ، بناء على طلبه ، مع رسائل توصية الى ضابط سويسري كبير يطلب اليه ان يلحقه بخدمته . تأمل روسو خيراً وتصور نفسه ، منذ تلك اللحظة ، لابساً بزة ضابط مع قبعة ذات ريشة بيضاء رائعة . غير ان قصر نظره كان يقلقه ويخشى ان يكون عائقاً له في مستقبله العسكري . قال : « ولكنني كنت قرأت ان المارشال شومبيرغ كان ، على رفعة مقامه ، قصير النظر ؛ فلماذا لا يمكن للمارشال روسو ان يكون كذلك ؟ »

كان الوصول الى باريس عن طريق ضاحية سان مارسو خيبة امل أولى ؛ ثم ان الكولونيل غودار الذي

كان روسو حاملاً اليه رسائل التوصية قد عرض عليه  
وظيفة خادم بلا اجرة ؛ اخيراً علم روسو ان مدام  
وارانس سافرت منذ شهرين . كل ذلك دفع روسو الى  
مغادرة باريس حالاً ، فذهب الى أنسي مشياً على  
الاقدام .

وصل ، وهو في طريقه ، منهوك القوى ، ضامر  
البطن ، الى بيت احد القرويين ، فبادر هذا الرجل  
الطيب الى انعاشه بشيء من الحليب المقشوط ، ومن  
خبز الشعير ؛ ولكنه ، حيناً رأى روسو يلتهم الطعام  
التهاماً ، ذهب الى احد الخبائء فأتى بلحم مقدد ،  
وخبز حنطة ، وبيض ، وخمر . قال روسو : « اخبرني  
مضيفي أنه كان يخبئ خمره وخبزه خوفاً من المكوس  
والضرائب ، ولو لم يكن يتظاهر بأنه يموت جوعاً ،  
لكان حل به الدمار . ان كل ما قاله لي من هذا القبيل  
لم يكن ليخطر لي على بال ، وقد أثّر بي تأثيراً عميقاً  
لا يُمحى . من هنا اضطرمت في نفسي هذا السخط العارم ،  
طول ايام حياتي ، على الظلم الذي كان يلقاه هذا الشعب  
المسكين وعلى ظالميه » .

توقف روسو في مدينة ليون حيث جرى له حادث

جعله يقول عن هذه المدينة : انها اكثر مدن اوربا فساداً ،  
غير ان الحظ خدمه بتمرفه على راهب كلفه بأن ينسخ  
قطعاً موسيقية بأجر لا بأس به ، وكان يقدم له افخر  
الاطعمة ، وهذا ما كان روسو بحاجة اليه اكثر من اي  
شيء آخر .

وصلت اليه اخبار عن « المامسا » التي كانت في  
شامبيري فراسلها ، وبفضل الدراهم التي بعثت بها اليه ،  
استطاع ان يذهب الى ملاقاتها ، وان يجد ، بواسطتها ،  
عملاً في دائرة المساحة : « هنا تبدأ » منذ قدومي الى  
شامبيري ، حتى سفري الى باريس في سنة ١٧٤١ ،  
مدة تتراوح بين ثمانية او تسعة اعوام ، كانت حياتي ،  
خلالها ، في غاية البساطة والعذوبة .

احب روسو عمله في شامبيري : « لقد حبَّب تلوين  
الرسوم الهندسية الى فن الرسم والتصوير » . بيد ان  
الموسيقى هي التي كانت الفن المفضل اليه ، وذلك لانه  
كان يستطيع ان يدرس ويمارس هذا الفن بالاشتراك  
مع مدام دي وارانس .

في تلك الايام ( تشرين الاول سنة ١٧٣٣ ) نشبت  
الحرب بين فرنسا وامبراطور النمسا . تأثر روسو تأثراً

كبيراً بأحداث هذه الحرب وبمسيرها فأكتب على قراءة الصحف ، « ولكن بتحيز كلي لفرنسا حتى ان قلبي كان يخفق فرحاً لاقل نجاح تحرزه فرنسا ، وينقبض المألماً ينزل بها من فشل كأنه نزل بي انا » .

ثابر روسو على ممارسة الموسيقى ونظم حفلة موسيقية شهرية عند مدام دي وارانس ؛ ثم ما لبث ان ترك وظيفته في المساحة لكي يكرس وقته لفنه المفضل ، وقد ساعده شبابه وحسن مظهره على جمع عدد كاف من التلاميذ لكي يستطيع ان يستغني عن وظيفته .

في سنة ١٧٣٤ ذهب روسو الى مدينة بيزانسون حيث أقام زمناً يسيراً عاملاً في التأليف الموسيقي مع الاب بلانشار ؛ وقد وعده هذا الاب بان يستحصل له على مركز في باريس بعد بضعة اشهر .

استند روسو ، بفرح ، الى هذا الوعد ، فعاد الى قرب « الماما » في شامبيري ، حيث تابع درس الموسيقى ، باذلاً جهده في ان يقدم لمدام دي وارانس جميع الخدمات التي يمكنه ان يقوم بها . وقد اتفق له ، آنذاك ، ان أصيب بجراح بينما كان يمارس اعمالاً رياضية ، وقد ظل فاقد النظر اكثر من ستة اسابيع حتى ساءت

صحته واضطر الى الاستجمام في احدى الضواحي ،  
بالقرب من شامبيري . قررت مدام دي وارانس ،  
عندئذٍ ، ان تقيم معه في ضاحية ( شارميت Charmettes )  
حيث اعدت لهما مسكناً متواضعاً على رابية صغيرة  
تشرف على جدول ينساب بين الاعشاب . هنا  
عرف روسو ، في ذات الوقت ، « لذة حب ناشئ » ،  
وجالات ، أقل زوالاً ، تشبعها الطبيعة الخالدة » .

بيد ان هذه الايام السعيدة لم تدم . كانت صحة  
روسو ، تسيء اكثر فاكثر ، وكان 'يخشى ان يكون  
القلب قد أصيب ، فذهب يستشير احد الاخصائيين في  
مدينة مونييليه . كانت السفارة ممتعة لأن روسو حظي  
برفقة سيدة لطيفة المعشر استطاعت ان تنسيه انه  
مريض ، وانه ترك « الماما » في شامبيري .  
لم يعطِ علاج الاخصائي اية نتيجة فعاد روسو  
من حيث اتى .

بيد ان خيبة أمل قاسية كانت تنتظره عند عودته :  
ان المقام الذي كان يحتله في البيت ، وفي قلب « ماما  
العزيزة » ، قد احتله فتى سويسري يدعى « ونترزويد » ،  
مهنته مزين : « كان هذا الفتى ضخماً الجثة » ، أشقر

اللون ، ذا تكوين جسمي لا بأس به ، ولكنه كان مفرطح الوجه ، لا جاذب له ... وكان يدّعي انه لم يزين سيدة جميلة إلا « وزين » زوجها في ذات الوقت .

بالرغم من ان مدام دي وارانس أبلغت روسو ان حقوقه في البيت مازالت كما كانت ، أبي ، هو ، منذ ذاك الحين ، ان ينظر الى « هذه الماما الغالية على قلبه جداً ، إلا بعيني ابن حقيقي » . ولكن ، بقدر ما كان نفوذ الفتى السويسري يزداد على مدام دي وارانس بقدر ذلك كانت عاطفتها تبرد نحو روسو ، لذلك كان إخلاؤهم المكان الحل الوحيد لموقف لم يعد من الممكن احتماله .

آنذاك ، عرضت على روسو وظيفة معلم في مدينة ليون عند موسيو دي مابلي ، فسافر الى ليون « غير آسف على فراق كانت فكرته وحدها ، في ما مضى ، تلقى في قلبينا قلق الموت » .

بعد سنة من ممارسة وظيفة التعليم ، فضل روسو تركها والعودة الى شارميت ؛ ولكن « تلك التي كانت تبعث الحياة في كل شيء » تبدلت ، وماتت تلك

السعادة القديمة الى الابد . بيد ان روسو استطاع ان يقنع بالقليل باذلاً كل جهد في كسب ما يمكن من المال لكي يساعد به مدام دي وارانس وهي تتخبط في ضنك مالي عسير . فكر روسو في ابتكار « نوتات » موسيقية جديدة تستند الى الأعداد ، وظن انه سيحصل على ثروة من نشر تلك النوتات ، فسافر حالاً الى باريس .

## ٢ - باريس : التأليف الأولى

( ١٧٤١ - ١٧٥٠ )

سافر روسو الى باريس في خريف سنة ١٧٤١ وسكن بالقرب من جامعة السوربون ، وتمكن بواسطة توصيات به ، من إعطاء بعض الدروس الخاصة . ثم قدمه بعض معارفه الى المسيو دي ريومور الذي قبل بان يعرض مشروعه الخاص بالنوتات الموسيقية على المجمع العلمي . غير ان هذا المجمع لم يجد طريقة روسو هذه جديدة ، ولا مفيدة .

بالرغم من ان روسو تمكن سريعاً ، بفضل العلائق التي اقامها ، من مخالطة ألع ادباء باريس ، مثل مدام (دوبان Dupin) ومدام دي بروجي (Broglie) وماريفو (Marivaux) وفونتنيل (Fontenelle) وديدرو (Diderot)

الخ . فان الحظ ، مع ذلك ، لم يبسم له سريعاً ، ولكنه لم يأبه لذلك ، فكان يحب النزهة في حديقة قصر اللوكسمبورغ مطالعاً اشعار فرجيل ، او يقضي اياماً كاملة في لعبة الشطرنج ؛ مع ذلك لم يكن ينسى الموسيقى ، بل وضع ، منذ ذاك الحين ، اول تصميم لمفتاته : « عرائس الشعر المفنجات » (Les Muses galantes) .

عرضت مدام دي بروغيّ على روسو ان تساعد واستحصلت له على وظيفة سكرتير لدى سفير فرنسا في البندقية . تردد روسو ، اولاً ، ثم قبل ، اخيراً ، ولكن من غير حماسة .

كان روسو يود ان يذهب الى البندقية عن طريق (جبل سني Mont-Cenis) ، لكي يزور « الماما » في طريقه ؛ ولكنه اضطر ، لشح الدراهم في جيبه ، الى ان يعبر نهر الرون ويقطع من مرفأ طولون .

حال وصوله الى البندقية بدأ عمله . كان السفير ، موسيو دي موتيفغو ، رجلاً عادياً وذا فهم محدود . شعر هذا السفير ، بادىء ذي بدء ، بالجهود التي يبذلها سكرتيه في سبيل خدمة السفارة ، ولكنه لاحظ ،

شيئاً فشيئاً ، ان الاوامر التي كان يصدرها اليه لم تكن تتنفذ دائماً ، وان هذا السكرتير يتبع آراءه الخاصة في عمله ، لذلك حاول ان يقلم اظفاره ؛ غير ان روسو لم يتردد ، آنذاك ، في طلب صرفه من الخدمة ، والعودة الى فرنسا عن طريق جنيف ، ماراً بمدينة نيون حيث زار والده .

عند عودته الى باريس ، وسكنه مجدداً في فندق سان كنتان ، ظن انه يستطيع ، في الهدوء الذي يسود هذا الفندق ، ان يُتم مغناته . « كان ينتظري ، في هذا الفندق ، العزاء الحقيقي الوحيد الذي بعث به السماء الي في غمرة شقائي ، والذي ساعدني على احتمال الحياة » . كانت ملكية الفندق قد انتقلت الى سيدة اورليانية ، وكانت هذه السيدة قد استخدمت فتاة من اوليان ، تدعى تيريز لو فاسور ، لكي تعني بالملابس والبياضات ، وتقوم بأود والدها . كانت تيريز حييئة ، ساذجة ، لا هم لها سوى القيام بعملها . اعترفت الى روسو بـ زلة كانت قد اقترفتها « في اول صباحا » ؛ غير ان روسو لم يهتم الامر ، من حيث هو زلة : لم يكن يبحث الا عما يتلهم به .

حاول ، عبثاً ، ان يعنى بتثقيف تيريز ، لانها لم تكن

’تحسن الكتابة ، ولا القراءة ، ولا الحساب . مع ذلك ، زعم روسو انها كانت ذات رأي سديد في الظروف الصعبة . كانت تيريز مغلصة لروسو ، لكن والدتها كانت تسعى الى استغلاله حتى اضطرته ، اخيراً ، الى القيام بأود سبعة ، او ثمانية اشخاص .

لكي يفتح امامه بعضاً من ابواب الرزق ، عاد يتردد على معارفه ، وبمسمى من مسيو ريشليو أقيمت حفلة موسيقية عُزقت فيها ، للمرة الاولى ، مقاطع من ’مغناة روسو ‘ عرائس الشعر المغناجات ، ولكن دون نجاح يذكر . مع ذلك ، ’عهد اليه في تنقيح المغناة التي كان فولتير قد نظم اشعارها ، وكان الموسيقي رامو ، قد وضع موسيقاها ، وعنوانها ‘ اميرة نافار ، فاصبح عنوانها ‘ أعياد رامير ‘ . لم يشأ روسو ان يمس اشعار فولتير من دون ان يحصل على موافقته ؛ فكتب اليه بهذا الخصوص واستلم منه جواباً بالغ اللطف والجمالة . هذا كان بدء العلائق بين هذين الرجلين اللذين اصبحا ، في ما بعد ، عدوين لدودين .

أنفق روسو ، سريعاً ، الميراث القليل الذي عاد اليه عن والده ، واضطر الى تكريس كل وقته لكي يحصل

على ما يقوم به بأود تيريزه . تقرب من مدام دوبان (Dupin) ومن صهرها مسيودي فرانكوي الذي اتخذته سكرتيراً خاصاً .

رافق روسو ، في اواخر صيف سنة ١٧٤٧ ، مدام دوبان الى قصر شينونسو في تورين حيث قضى ، كما يقول ، اياماً ممتعة : « بينما كنت ، انا ، أسمن في قصر شينونسو ، كانت تيريزي المسكينة تسمن ، ايضاً ، في باريس ، ولكن سمنها كان من نوع آخر ، وحينما عدت ، وجدت النسيج التي كنت قد بدأتها يكاد يكون جاهزاً ، بعكس ما كنت انتظر » . كيف السبيل الى تربية ولد ، مع ضالة ما كان يكسبه من دراهم ؟ قال : « حذوت ، في تفكيري ، حذو ما كنت اشاهد من أناس جد محبوبين ، وجد طيبين » . كان اولئك الناس الطبيون هم الذين يلقاهم روسو على مائدة مدام لاسيل ، وهي زوجة خياط كانت تقدم على مائدتها اشكالاً من الطعام غير فاخرة ؛ ومع ذلك ، كان يزورها اناس من طبقة عالية : « وكنا نجن عندها كثيراً ، ولكن من غير غلاظة » .

بالحقيقة ، كان روسو يخشى ان تبطل حياته بمجيء هذا الطفل ؛ لذلك بادر الى ايداعه مؤسسة الاولاد

اللقطاء . 'رُزق روسو خمسة اطفال وكان كل مرة  
يبعث بالطفل الى مؤسسة الاولاد اللقطاء .

لا شك في ان روسو ندم ، في ما بعد ، على ما فعل ،  
وذاق وخز الضمير ؛ فقد قال في رسالة بعث بها الى  
مدام نو كسمبورغ : « ان الافكار التي أثارتها هفوتي في  
نفسي دفعتنني الى كتابة « بحث في التربية » ، حيث  
تجدين ، في الجزء الاول ، مقطعاً يدّلك دلالة كافية على  
ذلك . « وإليك هذا المقطع : « ان الرجل الذي لا  
يمكنه ان يقوم بواجبات الابوة لا يحق له ان يصير اباً » .  
وقد كتب في احد أجزاء كتابه « اميل Emile »  
يقول : « لا فقر ، ولا اشغال ، ولا حياء بشري ، ولا  
شيء من مثل ذلك يستطيع ان يعفي الاب من ان  
يكفي اولاده معاشهم ، ومن ان يقوم بتربيتهم هو  
بنفسه » . وكذلك في كتابه « تأملات متنزه مفرد »  
(*Rêveries d'un Promeneur solitaire*) يشعر القارئ  
بالمرارة التي كانت تبعثها في نفس الكاتب ذكرى هفوته  
تلك .

كانت وظيفة روسو كسكرتير تتيح له التعرف  
بنخبة مجتمعه . فقد تعرف بدمام (ديبيناي D'Epinay)

بواسطة مسيو دي فرانكوي ، وكانت هذه السيدة قد  
اخذت تحت حمايتها (غريم Grimm) و(دوكلو Duclos )  
ثم اهتمت بامر روسو وبذلت جهدها في سبيل جذبه  
الى محيطها.

كان روسو ، منذ عودته الى باريس ، قد وثق  
عري الصداقة مع ديدرو . كان الصديقان يتشابهان  
سناً وضمناً عيش ؛ وكان كوندشاك ، ودالامير ،  
يترددان عليها في أغلب الاحيان . طلب ديدرو من  
روسو ان يتعاون معه في تحرير « دائرة المعارف » .  
ذهب روسو ، ذات يوم ، يزور صديقه ديدرو الذي  
كان مسجوناً في سجن (فنان Vincennes) بتهمة نشر  
مقالة مخلة بالامن ؛ وبينما هو في الطريق ، قرأ في مجلة  
(مركوردي فرانس Mercure de France) ان مجمع  
ديجون العلمي دعا الكتاب الى المباراة في معالجة  
السؤال التالي : « هل أسهمت النهضة العلمية والفنية في  
إفساد الاخلاق ام في إصلاحها ؟ » قال روسو « حالماً  
قرأت هذا السؤال رأيت كأني اصبحت رجلاً آخر  
وفي كون آخر ؛ وحينما وصلت الى فنان كنت في  
اضطراب نفسي يشبه الهذيان . لاحظ ديدرو اضطرابي

فأخبرته عن السبب ، ثم قرأت له ما كنت قد كتبت ،  
في هذا الموضوع ، على لسان القنصل الروماني فابريسيوس  
(Fabricius) ، وكنت قد كتبت بالقلم الرصاص تحت  
شجرة السنديان . أشار علي ديدرو بالمضي في مشروعني ،  
وبالتعمق فيه ، وبدخولي المباراة . عملت بإشارته ،  
ومنذ ذاك الحين كتبت صك شقائي بيدي . ان جميع  
البلايا التي احاقت بحياتي ، في ما بعد ، كانت نتيجة  
حتمية لتلك اللحظة التي ارتكبت فيها ذاك الضلال .

كتب روسو موضوع المباراة المقترح تحت عنوان :  
« خطاب في العلوم والفنون » وذلك أثناء ليالي أرق  
محمومة .

يبين روسو في خطابه ان تقدم العلوم والفنون يفضي  
الى إفساد الاخلاق .

أبلغ روسو ، في السنة التالية ( ١٧٥٠ ) ، ان خطابه  
نال الجائزة ، وحينما نشر ديدرو هذا الخطاب أثير  
حوله جدال حامٍ . رد روسو على بعض منتقديه وأهل  
البعض الآخر . دخل الجدل الملك ستانيسلاس نفسه ،  
وقد رد روسو على هذا المنتقد الكبير ردّاً أفحمه به  
حتى ان الملك قال بعد هذا الرد ، كما يروي عنه :

« لقد وصل لي حقي ، وسكت » .

٣ - من « خطاب في العلوم والفنون »

حتى المنفى

( ١٧٥٠ - ١٧٦٢ )

وثق روسو من نفسه بعد نجاح « خطابه » وقد كان حتى ذلك الحين يشك في قدرته الكتابية . كانت افكار البطولة والفضيلة التي اثارها في نفسه مطالعته الاولى وإيماءات والده قد اختمرت في ذهنه ، وبذلك قال : « لا اجد شيئاً اعظم واجمل من ان يكون الانسان حرّاً وفاضلاً ، متعالياً فوق الغنى وفوق الرأي العام كافياً نفسه بنفسه » .

لذلك قرر ، اول ما قرر ، ان يستغني عن وظيفته كسكرتير عند مسيو دي فرانكوي ، وان يعود الى ممارسة مهنته كناسخ «نوتات» موسيقية . أما ، وقد اصبح ، بين ليلة وضحاها ، كاتباً شهيراً ، فقد انهال عليه الزوار انهياً يستغرق كل وقته .

ان هذا الانزعاج الذي سببته له شهرته ككاتب اضطرته الى الخلل بقواعد آداب المعاشرة . قال : « حملي طبعي التجول على ان اكون ساخراً ، فكنت

انتظار باحتقار التهم — ذيب لاني لم اكن اعرف ان  
امارسه » .

لم يفهم صديقه ديدرو وغريم سلوكه هذا ، وقد  
نسباه الى الداء الذي كان يعانيه روسو منذ أمد طويل .  
حاولا ان يقنعا بالعدول عن هذا السلوك ، ولكنها  
زاداه سخطاً .

كان حق روسو على مجتمعه يفارقه أحياناً : لقد  
رضي بان يزور موطنه الجوهري موسّار الذي اعاد  
عنده ، ومعه ، ذات يوم ، ذكريات عن الموسيقى الايطالية .  
شرع منذ ذاك اليوم ، يعمل ، بحماسة ، في الحقل المسرحي  
وكتب مسرحيته «عرّاف القرية» .

مثلت هذه المسرحية امام البلاط في فوتنبلو فلفتت  
الانظار ، مجدداً ، الى كاتبها ، حتى ان الدوق دومون  
(d'Aumont) اراد ان يقدمه الى الملك ، ولكن روسو  
رفض . لانه ديدرو على هذا الرفض وذكره بما يجب  
عليه تجاه تيريز ووالدتها ؛ وقد ساند غريم ما قاله  
ديدور . ظن روسو ان صديقه يتواطأ ضده مع  
امراته . من هنا اصل صدع الصداقة بينه وبين هذين  
الرجلين .

في ذات الوقت الذي كانت تتمثل فيه مسرحية  
« عراف القرية » ، كان المسرح الفرنسي يقدم « نرسيس »  
( Narcisse ) ، وهي مسرحية كان روسو قد كتبها  
منذ زمن ولم يكن ينظر إليها بعين الرضى مع ذلك ،  
قام بطبعها ونشرها ، في ما بعد ، مع مقدمة اودعها  
كثيراً من الافكار التي كانت قد عبر عنها في مقاله  
« خطاب في العلوم والفنون » .

في تلك السنة ( ١٧٥٢ ) ، ولمناسبة وصول جوق  
ممثلين ايطاليين الى مسرح الأوبرا ، كتب روسو « رسالة  
في الموسيقى الفرنسية » قال فيها ان اللغة الايطالية هي  
أصلح اللغات للغناء والموسيقى . في تلك الاثناء ، اقترح  
بجمع دييجون العلمي ، لمباراة سنة ١٧٥٣ ، الموضوع التالي :  
« ما هو اصل التفاوت بين الناس وهل يطابق هذا  
التفاوت سنة الطبيعة ؟ » . كانت روسو قد تطرق  
الى هذا الموضوع في « خطابه في العلوم والفنون » ،  
فأخذ يعن التفكير فيه مجدداً ، وترك باريس الى ضاحية  
سان جرمان لكي يكون على اتصال بالطبيعة ،  
ويرتاح من ضجيج باريس ، ويستجم في ظل السكينة .  
لم يطل به الامر حتى قرر الانتقال الى جنيف

برفقة تيريز واحد مواطنيه المدعو غوفكور .

كانت تيريز لازمة له ، هناك ، لكي تعتني به ، لانه كان يشكو دائماً من اوجاع يسببها له داء في مرارته . لم يشأ روسو ، لدى مروره بمدينة ليون ، إلا ان يزور « ماما » الحبيبة ؛ ولكن باي شكل ! قال : « رأيته ... بآية حال ، ياربي ! وبأي تشويه ! ... يا له من ألم خرق قلبي ! » . لم يكن روسو ليستطيع ، آنذاك ، ان يسدد الديون التي كانت قد ارهقت كاهل مدام دي وارانس ، ولكنه كان يتمنى ، كما قال ، لو رضيت بالعيش معه لراحة بقية ايامها ؛ ولكنها رفضت .

جاء روسو الى جنيف مدفوعاً بتشويق مواطنيه غوفكور ، ومتحمساً للنظام الجمهوري في بلاده . احتُفي به ، هناك ، احتفاء بالغا ؛ أما هو ، فكان « خجلاً من ضياع حقوقه كمواطن لاعتناقه المذهب الكاثوليكي وتنكره لمذهب اجداده ، لذلك قرر العودة ، جهاراً ، الى مذهبه القديم » ورجوعه الى البروتستانتية ، استعاد حقوقه كمواطن في جنيف ؛ ثم على إلحاح من اصدقائه ، قرر الاقامة ، نهائياً ، في مدينته مع رفيقة العمر تيريز .

بعد هذا القرار ، شاء ان يتجول ، بعض الوقت ، غير مهم الا بالتزهر والتلهي .

بيد انه عاد ، بعد شهر اربعة ، الى باريس ، في تشرين الثاني ، مع قصد الرجوع الى وطنه في الربيع الذي يلي .

فكر روسو ، بعد نشر « خطابه في التفاوت بين الناس » ، بان « إهداء هذا الخطاب الى جمهورية جنيف » من شأنه ألا يسر مواطنيه . وبالفعل ، فقد جلب له هذا الاهداء « اعداء في المجلس وحساداً في البورجوازية » . غير ان مدام ديبيناي وضعت تحت تصرفه مسكناً يُسمى الارميتاج ( l'Ermitage ) كانت قد بنته في غابة مونمورانسي (Montmorency) بقصد إسكان روسو . هذا الكاتب الشهير ، بالقرب منها .

بعث روسو بنسخة من « خطابه في التفاوت بين الناس » الى فولتير فأجابه هذا الاخير يقول : « ... لم يسخر احد فكره بقدر ما سخرته ، انت ، لكي تجعلنا شبيهين بالبهائم ؛ يشتهي الانسان ، حينما يقرأ خطابك ، ان يمشي على أربع قوائم » .

عمل روسو على تنظيم حياته بعد اقامته في الإرميتاج

في ربيع سنة ١٧٥٦ : فيواصل ، في الصباح ، مهنته كناسخ نوتات موسيقية ، ويقضي بقية يومه متنزهاً ، وقد اصبحت غابة مونثورانسي مكتباً فسيحاً لقلبه .

كان روسو قد شرع بتأليف عدة «اهمها:» مؤسسات سياسية » ، وهو مؤلف لم يطبع ، ولكن قسماً منه اصبحت ، في ما بعد : « العقد الاجتماعي » (Le Contrat social) .

وكانت عائلة الأب سان بير قد اودعت روسو مخطوطات هذا الكاهن وعهدت اليه في انتخاب مقطوعات منها .

وكان روسو يريد ، في ما يريد ، كتابة مؤلف تحت عنوان «الاخلاق الحسية» او «مادية الفيلسوف» ، وهو مؤلف كان من شأنه ، على زعم روسو ، ان يكون « احد أهم المؤلفات التي يمكن اهداؤها الى البشرية » ؛ وبالإضافة الى كل ذلك ، كان يفكر في طريقة تربوية لتنشئة حفيد مدام دوبان .

كانت جميع المؤلفات مواضيع تفكير لروسو في نزهاته ، لانه لم يكن يستطيع ان يفكر الا وهو يمشي . قال : «لا يمشي رأسي الا مع رجلي» . اما في ايام الشتاء ، فكان يشغل ، داخل مكتبه ، في « قاموس الموسيقى »

الذي لم يُطبع الا في سنة ١٧٦٧ .

كان الوقت الذي قضاه روسو في الارميتاج من أخصب اوقات حياته في التأليف ، ولكن الارميتاج لم تكن الشارميت : كانت تيريز ، هناك ، مع أمها المزعجة ، ولا سيما حينما كانت تضيف الى هذا الازعاج متاعب لا 'تحتمل بواسطة المبالغ التي كانت تستدينها باسم ابنتها . وكانت مدام ديبيناي ، من جهتها ، لا تبرح تدعو روسو اليها لكي تستشيريه في أمر ما تكتب .

ولكي ينسى روسو متاعبه ، كان يقضي ايامه ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، بين افكاره وأحلامه ؛ وفي تلك الظروف بعث الى فولتير « برسالة في العناية الالهية » ، ووضع تصميم « هيلوييز الجديدة » (La Nouvelle Héloïse)؛ وفي تلك الايام التقى مدام دوتدو (d'Houttedot) في احدى نزهااته وسط الغابة ، وكانت مدام دوتدو ابنة حمي مدام ديبيناي . « كان الحب ، هذه المرة ، حقيقياً » ، ولكنه كان حباً عذرياً « افلاطونياً » بالرغم من الرسائل المحمومة ، الملتهبة ، والتي كانت رسائل سان برو (Saint-Preux) الى جولي (Julie) في هيلوييز الجديدة تبدو كأنها اجوبة لها ،

وروداً عليها .

لم يكن روسو يخفي عاطفته نحو مدام دوتدو ، بل كان يجهر بها علانية ، وقد آلم هذا الجهر مدام ديبيناي ، وحينما طلبت اليه هذه الاخيرة مرافقتها الى جنيف رفض روسو طلبها ، ومنذ ذلك الحين وقعت القطيعة بينهما ؛ وفي ذات الوقت زاد النفور بينه وبين صديقيه القديمين ديدرو وغريم بعد حوادث تتعلق بذات القضية .

اضطر روسو الى ترك الارميتاج في فصل الشتاء ( كانون الاول سنة ١٧٥٧ ) فانتقل الى « مون لوي » بالقرب من قصر مونغورانسي ؛ وقد اغتنم فرصة هذا الانتقال الاضطرابي لكي يقضي عنه والده تيريز ، ثم اكب على الشغل بجماعة لكي يسكتن به آلامه النفسية واوجاعه الجسدية المتفاقمة .

كان دالامبير قد كتب في « دائرة المعارف » مقالة عن جنيف لم تحظ برضى اهل هذه المدينة : فقد مدحها ، بادىء ذي بدىء ثم لامها ، بايحاء من فولتير ، على نبذها المسرح . احتج قسس المدينة على هذا الانتقاد وحرروا اعترافاً بايمانهم . سككت دالامبير ؛ بيد ان روسو كتب في ( شباط سنة ١٧٥٨ ) « رسالة الى دالامبير في

التمثيل « بين فيها فساد هذا النوع من الملاهي ، وقال  
عن هذه الرسالة انها الكتابة الاولى ، من بين كتاباته ،  
التي ذاق فيها متعة العمل .

بادر المارشال دي لوكسمبورغ وزوجته ، اللذان  
كانا يسكنان قصر مونورانسي ، الى عرض ضيافتهما  
على جارهما روسو فقبلها هذا فوراً . اجل ، لم يتردد  
روسو ، وهو رجل الطبيعة الذي يحتقر مخالطة الناس ،  
ولا سيما العظماء منهم ، في قبول هذه المنة ، وذلك  
بتناقض غريب اتاه مراراً عدة في حياته ؛ لكنه  
كتب ، في ذلك الحين ، أهم مؤلفاته ، فأكمل  
« هيلوين الجديدة » ونشر « العقد الاجتماعي » و « إميل » .

صحيح ان « العقد الاجتماعي » لم يُثر ضجة كبرى  
في فرنسا ، ولكن « إميل » جلب على كاتبه سخط  
المتدينين والملحدين ، المسيحيين والفلاسفة ، معاً ، بالرغم  
من تناهشهم فيما بينهم « كالذئاب الجائعة » .

#### ٤ - المنفى والأيام الاخيرة

( ١٧٦٢ - ١٧٧٨ )

لم يمضِ عشرون يوماً على نشر كتاب « إميل » في  
هولاندا حتى حكم عليه برلمان باريس بالحرق ، وحكم

على كاتبه بالسجن ( حزيران سنة ١٧٦٢ )؛ ثم بناءً على نصيحة اللذين أخذاه تحت حمايتهما، قرر روسو الهرب، فأشير عليه باللجوء الى انكلترا ؛ ولكنه فضل الذهاب الى سويسرا « بلد الحرية » ، واتى مدينة ايفردون السويسرية . بعد اربعة ايام من قدومه الى هذه المدينة، حكم مجلس جنيف على كتابيه معاً وحذت مدينة برن حذو جنيف . قال روسو : كان قد أثر ضدي ، في كل اوروبا ، صراخ لعنة هائج لم يسبق له مثيل .

غادر روسو ايفردون ولجأ الى مدينة « مونتيسه — ترافير » الصغيرة بالقرب من مدينة نومشاتيل الواقعة تحت حكم ملك بروسيا ، فريدريك الثاني ، ثم تبعته تيريز فاقاما هناك بضعة اسابيع بسلام .

بين رئيس اساقفة باريس ، كريستوف دي بومون، في رسالة رعائية ، النقاط التي يناقض بها روسو ، في كتابه « إميل » ، العقائد الكاثوليكية ، فرد عليه روسو برسالة يقول فيها : « اني اتخذ الكتاب المقدس وعقلي كالقاعدتين الوحيدتين اللتين ابني على اساسهما اعتقادي ؛ اني ارفض سلطان البشر ولا اخضع لما

يعتقدونه الا بقدر ما ارى فيه من حقيقة ، .

لم يصادق القسم الاكبر من جنيف على هذه الرسالة ، بالرغم من كونها 'كتبت للذود عن البروتستانتية' ، وقد نشر المدعي العام ترونشن ، مصدراً حكمه بوضوح ضد روسو ، « رسائل مكتوبة من الريف » لكي يدعم موقف اصدقائه . رد عليه روسو بتسع « رسائل مكتوبة من الجبل » خصص الست الأولى منها بالدفاع عن نفسه ؛ اما في الاربع الأخرى ، فقد هاجم دستور جنيف ووصمه بالانحراف عن روح الحرية .

في هذه الاثناء ، ظهرت مقالة انتقادية عنيفة في اواخر سنة ١٧٦٤ ، عزاها البعض الى فولتير ، اثارت الرأي العام ضد روسو وجعلت بقاءه في «موتيه» مستحيلاً ، وقد هاجم الفلاحون ، في احدى ليالي ايلول ، بيت روسو بالحجارة .

جأ روسو الى جزيرة سان بيير الواقعة في وسط بحيرة «بين» ، ولكنه أُنذر بترك الجزيرة . غادر روسو سويسرا وتوقف في ستراسبورغ حيث استقبل بحفاوة ، ولكن احد اصدقائه اقترح عليه السفر الى

انكلترا حيث يستطيع ان ينعم بحرية تامة ويلتقي  
الفيلسوف دافيد هيوم صديقه .

وصل روسو الى لندن في كانون الثاني سنة ١٧٦٦  
فاستقبله هيوم واسكنه ضاحية صغيرة بالقرب من العاصمة  
تدعى تشيسويك حيث يمكنه مواصلة كتابة «اعترافاته» .  
ثم قدم له احد اصدقاء هيوم بيتاً في «دريشير» على بعد  
بضعة اميال من لندن فقبل بسرور . ولكن ، لسوء  
الحظ ، بدأ روسو يتصور انهم أغروه بالجيء الى انكلترا  
لكي يحقّقـوه ويسخروا منه ، وأخذ يتهم هيوم بنقض  
رسائله ؛ وقد أسهمت مقالات انتقادية أخرى أوحاها  
او كتبها فولتير في تفاقم نوبة الجنون التي اعترت روسو ،  
آنذاك ، وجعلته يعتقد ان الجميع يضطهدونه . تبادل  
مع هيوم رسائل عنيفة اللهجة حتى اصبحت الخصومة  
بينها خيراً شائعاً . لذلك قرر روسو ، في نيسان سنة  
١٧٦٧ ، ان يترك انكلترا ويعود الى فرنسا ضيفاً على  
الماركيز دى ميرابو والد الخطيب الكبير الشهير . ثم لم  
يلبث ان ذهب الى مقاطعة النورماندي ضيفاً في قصر  
تري ، بالقرب من جيزور ، على الامير دي كورتي الذي  
كان روسو قد تعرف به خلال اقامته في جوار

المارشال دي لوكسمبورغ . اما تيريز فلم تفارقه منذ سفره الى سويسرا ، ومن المرجح ان تكون قد دفعت روسو المريض ، والمضطهد ، على زعمه ، بما لها من النفوذ عليه ، الى الاسراع في مغادرة انكترا ؛ ولكن ، من المؤكد انها هي أرغمته على مغادرة تري .

شاء روسو ان يذهب الى مقاطعة الدوفينه ، وان يزور قبر مدام دي وارانس ، ثم أقام ، أخيراً ، في بورغوان . هنا ، وامام شاهدين ، أعطى روسو تيريز ليفاشور د اسم زوجته وحالتها ، معلناً استحالة قسم عرى العلاقة التي ظلت تربط احدهما بالآخر منذ عشرين سنة . بيد ان مناخ بورغوان لم يلائم حالته الصحية فذهب يقيم في مزرعة موكين المرتفعة حيث بقي حتى نيسان سنة ١٧٧٠ .

ثم عن له ان يعود الى باريس لكي يفحم اعداءه ، وكان الدوق دي شوازيل ، وزير الخارجية ، قد سمح له بالرجوع الى العاصمة بعد ان كان البرلمان قد اصدر قراراً بمنعه من دخولها . اراد روسو ان يقرأ في النوادي مقاطع من « اعترافاته » لكي يبرر بها نفسه . كانوا يصغون اليه ، ولكن بلا مبالاة . وبما ان « الاعترافات » عجزت عن تنقية الجو الخائث الذي كان يستشقه رجل حساس

كروسو ، فقد لجأ الى كتابة «محادثات» اخذ الدفاع فيها عن روسو احد المتحدثين ، ولكن من غير جدوى ، ولكي يحفظ روسو مخطوطته من الضياع ، اودعها شاباً انكليزياً كان ماراً بباريس وعهد اليه في نشرها بعد موته .

اضطر روسو الى ممارسة مهنته القديمة كناسخ نوات موسيقية لكي يستطيع ان يعيش ؛ وكان قد سكن شارع بلاتيرير في طابق رابع قبالة دار البريد ضمن غرفة متواضعة حيث كان برناردان دي سان بيير يأتي لزيارة صديقه روسو غالباً . وصف برناردان دي سان بيير روسو يقول : « كان جان جاك رجلاً نحيفاً ، معتدل القامة ، وكانت احدى كتفيه تبدو اكثر انخفاضاً من الاخرى إما لعاهة طبيعية وإما للوضع الذي كان يتخذه وهو يكتب ، وإما ، أخيراً ، لان السنين كانت قد حنت ظهره وهو ، آنذاك ، في سن الرابعة والستين . مع ذلك ، كانت بنيتة متناسقة . كان اسمر اللون ، وردي الوجنتين ، جميل الفم ، قافي الانف ، مستدير الجبين ، عالي الجبهة ، ناري العينين . كانت تقاطيع وجهه التي تنحدر من المنخرين نحو طرفي الفم ، والتي تتميز بها السياء ، تعبر عن إحساسية بالغة يخالطها شيء

من الألم ... كان الى جانبه بيانو صغير من الطراز القديم ينقر عليه ، من حين الى آخر ، بعض الالخان ؛ وكان كل اثاث غرفته يتألف من فراشين قطنيين ، وبين بعض البسط ، يضلح كل ذلك اللوان الازرق والابيض ، مع خزائن صغيرة ذات ادراج ، ومنضدة ، وبعض الكراسي ... كان هناك كناري يغرد في قفص معلق بالسقف ، وعصافير دوري تأتي فتأكل الحبوب المنثور على النوافذ المفتوحة من ناحية الشارع ، وكانت تنمو على نوافذ المدخل في صناديق خشبية وأوانٍ خزفية مزروعة شتى ثابتة كما يطيب للطبيعة ان تبذرهما .

في اغلب الاحيان كان روسو ، بعد ان ينتهي من عمله ، يذهب برفقة برناردان دي سانت بيير يتنزه في غابات سان كلو أو على منحدرات فيل دافري . ففي ذلك الوقت كتب روسو « تأملات متنزه منفرد » حيث نجد بعض أروع الصفحات التي دأبها قلمه .

ساعت حالته الصحية منذ عودته الى باريس فقدم له الماركيز دي جيراردان ، وهو احذ المعجبين به ، مسكناً في قصره في ايرمونفيل بالقرب من سنليس ، حيث حل روسو مع تيريز . كان يبدو ان الافادة من هدوء

الريف ، وطيب الهواء ، وجمال الطبيعة قد حسنت صحته ، وفجأة ، داهمته الوفاة في الثاني من تموز . كان قد دعا تيريز اليه في الصباح وقال لها : « ارجوك يازوجتي العزيزة ان تفتحي لي النافذة لكي اتمتع مرة أخرى برؤية الطبيعة الخضراء . ما أجملها ! وما أصفى وأبهى هذا النهار ! » .

قبل ان وفاته لم تكن طبيعية ، فتحدث البعض عن انتحار بالرصاص ، وزعم البعض الآخر ان تيريز شذخت رأسه في ساعة غضب . غير ان رفاة التي 'نبشت' سنة ١٨٩٧ بحضور شهود رسميين دلت على عدم وجود ثقب او كسر في الجمجمة .

'يرجّح ان الوفاة حصلت من تسمم في الدم ناتج عن مرض مزمن في المرارة رافق روسو طول حياته . 'دُفن روسو في جزيرة صغيرة تدعى جزيرة الحور وسط حديقة ايرمينوثيل .

قررت حكومة ( الكونفانسيون la Convention ) سنة ١٧٩٤ نقل رفات روسو باحتفال رسمي الى (البانثيون Panthéon) حيث كانت رفات عدوه فولتير قد نقلت منذ ثلاثة اعوام .

كان الاحتفال بنقل زقات روسو في ذلك العهد ذا دلالة سياسية كبرى . مشى الموكب من قصر التويلري الى البانتيون مؤلفاً من فئات ترمز كل فئة منها الى كتاب من كتب روسو : كان أمام اعضاء الحكومة حاجب يحمل « العقد الاجتماعي » وكانت أمهات مع اولادهن يرمزون الى كتاب « إميل » ، وموسيقيون يعزفون الحاناً من اوپريت «عُشراف القرية» ، وأطباق من الثمر ، وباقات من الزهور ترمز الى حب الطبيعة ، ورهط من سكان مدينة جنيف يُذكر بالمدينة التي رأى روسو فيها النور .

هذه هي حياة الفيلسوف الذي قيل عنه بحق « انه هو الذي كان سبب الثورة الفرنسية » .

## فلسفته

اولاً - لكل فيلسوف اتجاهات فلسفية خاصة يرجع اليها ، دائماً ، فكأنها اسس عقيدته ؛ يوحى اليه قسماً من هذه الاتجاهات مزاجه الفطري ، والقسم الآخر تربيته بالنسبة الى وسطه المادي ، والذغني ، والاخلاقي . تلعب هذه الاتجاهات الخاصة دوراً رئيسياً في انتقاء الحقائق الثابتة ، والمناهج المتبعة : قد تُطبّق هذه الملاحظة على جان جاك روسو اكثر مما تُطبّق على غيره ؛ لذلك سنحاول ، لكي نفهم روسو ، ان نستخرج ، حالاً ، حقائقه الاولى .

لنذكر ، أولاً ، هذه العبارة الشهيرة التي أعلنها :  
«أفضل ان اكون رجلاً متناقضاً على ان اكون رجلاً متمسباً»  
منقاداً . . يعني هذا ان روسو لن يهتم ، اطلاقاً ، للرأي  
الذي يأخذ به سواد البشر ويزعمون انه الرأي الأصح .  
فالشئ الوحيد الذي يهتم له هو الحقيقة ، والحقيقة فقط .  
فان طابقت الحقيقة رأي الاكثرية ، فلا أحسن ! ؛  
وإلا ، فان روسو سيجهربها أمام الملأ ولو أدى به هذا  
الجهرب الى إغضاب أولئك الذين يزعمون انهم فلاسفة .  
انه لموقف جميل يقفه روسو شرط ألا يتحول ، هذا  
الموقف الى قول ما لم يقله احد ، والى اللعان بقول ما لم  
يكن ينتظره احد . لقد اتهم روسو فلاسفة عصره  
بالوقوع في هذا الخطأ . فهل تجنبه هو ، دائماً ؟

الاتجاه الثاني والأهم هو قوله : « اذكر ، دائماً ، ان  
عدم المعرفة لم يقترب شراً البتة ، وأن الضلال هو وحده  
الذي يقود الى الشر ، وان الانسان لا يضل بما لا يعرفه ،  
ولكن بما يظن انه يعرفه » . جميع الفلاسفة «متكبرون»  
متشبثون بأرائهم وبمعتقداتهم ، كأنهم لا يجادلون  
شيئاً ، ولكنهم لا يستطيعون شيئاً إلا ان يسخر بعضهم  
من بعض ، وبهذا ، فقط ، هم على حق » . لا يعرف

البشر الا القليل القليل بما يمكنهم ان يعرفوا؛ بيد انه يوجد،  
ثمة ، مواضيع لا تحصى لا نستطيع ان نعلم عنها شيئاً  
مهما بذلنا من جهود . ليس الحكيم ، اذن ، من يدعي  
علماً شاملاً ، بل من يستطيع ان يعرف حدود معرفته  
الحالية والممكنة ، ومن يعرف « ان يحل ما لا يستطيع ان  
يعرفه » فيجيب « لست ادري » عما لا يدري ، ويعلن نفسه  
من غير خجل « الفيلسوف الجاهل » حسب عنوان احد  
كتب فولتير .

الاتجاه الثالث . لنعرف ان نختار بين المسائل التي  
تطرح على البشر وتثير جدالات حامية . فمن هذه  
المسائل ما ليس له اهمية عندنا ، ولا جدوى ، لانه  
تصوري محض ، وتقديري محض ، مثلاً : هل الكون  
متناهٍ ام لا متناهٍ ؟ هل هو مركب ؛ اساساً ، من ذرات  
ثابتة ام من عناصر قابلة الانقسام الى ما لا حد له ؟  
يا لها من أحاجي مرهقة للدماغ !

لا فائدة لنا من مثلها ، لانها لا حل لها لدينا .  
« ماذا همنا منها ؟ » . ان ما همنا هو غير ذلك ،  
هو تنظيم حياتنا : كيف يجب ان ننظر الى المعتقدات  
الدينية ! اية مبادئ سلوك يجب ان نتبع ، ولماذا ؟

كيف يجب ان ننظم المجتمع والدولة ؟ كيف يجب ان نربي اولادنا؟ هذه هي مسائل نفيد من التعمق في بحثها ؛ اما المسائل الاحاجي ، فلندعها جانباً . ان للقوى البشرية حدوداً ، لذلك يجب ان نوجه جهودنا آخذين هذه الحقيقة بعين الاعتبار .

من هنا ينتج منهاج فلسفي بكامله . المطلوب ، قبل كل شيء ، تمييز بعض الأبحاث الأساسية ، واستخراج نتائجها المنطقية ، ثم التفكير في الصعوبات التي يمكنها ان تعترضنا ، وفي ما يجب ان نصنع إزاء كل ذلك .

اما في ما يتعلق بالأبحاث الاساسية ، فعلينا ان نفحص منها الابحاث التي تعرض لنا ، ونرى هل يوجد بينها ما لا نستطيع ان نرتاب في حقيقته « بحسب وجداننا العميق ، الصادق » ؟ لا شك في ان من يريد ان يتلهم بالجدالات الارتيازية المتحذقة يستطيع ان يحاك في كل شيء ؛ ولكن الماحكة لا تجدي شيئاً . المطلوب ان نرى ، حيناً نكون مخلصين في قرارة انفسنا ، هل يوجد ، ثمة ، حقائق أكيدة يفرض علينا التسليم بها ، ام لا يوجد ؟ مثلاً : هل يمكنني ان ازعم ، مخلصاً ، انني لست بموجود ؟ ان الحاسة الطبيعية هي ،

في مثل هذا السؤال، اصدق من حك الادمغة والتفلسف  
الفارغ . فالمنهاج الذي يأخذ بالحقائق الواضحة من  
طبيعتها هو الذي يجب ان تتبعه لكي نجعل من هذه  
الحقائق نقطة انطلاقنا الاولى . فان نحن عرفنا ان نفيد  
من هذا المنهاج القويم بلغنا الى تلك الحقائق التي لا  
نستطيع ان نتنكر لها من غير ان نخجل من انفسنا .

يعتقد روسو اننا حينما ننطلق من تلك الحقائق يتاح  
لنا ان نستخرج منها شتى النتائج الحتمية . ان نحن  
عرفنا ان للهواء وزناً ، استطعنا ان نعرف ما يحدث  
للبارومتر من تبدل عند نقله الى مكان ارفع ؛ او ان  
نحن تأكدنا من صحة خطة سلوك معينة ، استطعنا ،  
ايضاً ان نعرف ماذا يجب ان نصنع في ظروف معينة  
بالنسبة الى هذه الخطة . ان فن استخراج النتائج المنطقية  
من مبادئ مسلم بصحتها هو ، اذن ، عنصر هام من  
عناصر المنهاج .

ولكن ، ان نحن انطلقنا من تلك المبادئ المحققة  
فبلغنا الى نتائج لا تتفق بعضها مع بعض ، يجب ألا  
نضطرب . لا يمكن لعقلنا البشري ان يحلو جميع  
الظلمات ، بل ان جل ما يستطيعه ، في تلك الحالة ،

يتلخص باقحام « بعض تكهنات متواضعة » ؛ ولكنه يخلص الى القبول « يحل ما لا يستطيع ان يفهمه » . حينما تمس المبادئ المبحوث فيها قلب الفيلسوف ، لا تعود تقلقه التناقضات الظاهرة ، بل يتبع نصيحة بوسويه : « فيمسك بطرفي السلسلة ولو لم يكن يرى وسطها » .

هذا هو المنهاج الافضل ، وهو منهاج النائب السافوي : « آخذ على عاتقي ، بحسب هذه الطريقة ، فحص ما تهمني معرفته ، مصمماً على التسليم بالحقائق التي تبدو واضحة لوجداني العميق ، ثم بالحقائق التي لها علائق حتمية مع الاولى ، وترك كل ما بقي في ظلام الشك فلا ارفضه ولا اثبته لان البحث فيه لا يجدي نفعا » .

تفسر لنا هذه المواضيع الاساسية حنق جان جاك روسو من مخترعي الطرائق المرسومة رغبة منهم في الظهور والطنطنة اكثر من البحث عن الحقيقة ، وتفسر لنا كذلك عدم اهتمامه بصعوبات عقيدته الخاصة ، وتدلنا على طبيعة المشكلات التي يهتم لها : المشكلة الدينية ، والمشكلة الاخلاقية ، والمشكلة التربوية ،

والمشكلة السياسية . يعلم روسو جيداً ان فلسفته لا تشرح لنا كل شيء لان ثمة صعوبات لا يستطيع اي علم بشري ان يحلها . ولكن ، ان تكن جميع النظريات غير كافية ، في النهاية ، فان بينها ، مع ذلك ، فروقات جسيمة ، لان منها ما لا يمكن تصديقه ، ومنها ما يبدو ، على الاقل ، قابلاً للتصديق . وبما ان روسو يعتبر نظريته أحق بالتصديق من سواها ، لانه لا يستطيع ان يتنكر لها من غير ان يخجل من نفسه امام نفسه لذلك يدعو الناس الى اعتناقها .

ثانياً - وضع روسو مبادئ نظريته على لسان هذا النائب الاسقفي الساقوي الذي يشكل قانون ايمانه معظم الجزاء الرابع من كتاب «اميل» . ان هذا المقطع مشهور ، ولكنه يحتوي على شيء من الفخفخة والتفخيم . لنجرده من حلاه البديعية ، ومن نزواته العاطفية ، فلا يبقى امامنا سوى عدد قليل من وجهات النظر التي تشكل ، بمجموعها ، هذه «الديانة الطبيعية» التي يعتبرها روسو ملأى بالنتائج الحاسمة في الحياة .

أ- ان الديانات التي ازدهرت وتزدهر في العالم لا تحصى ، وهي تختلف ، فيما بينها ، كل الاختلاف ،

وتحتوي كل منها على عقائد تستند الى اساطير مدهشة ،  
بوجه عام ، والى طقوس غريبة الشكل ، في الغالب ،  
والى قواعد اخلاقية منها ما هو مخيب للآمال ؛ ثم ان  
تنوعها ، ذاته ، من شأنه ان يحذر المؤمنين بها من طبيعة  
ايمانهم المريية . ان يكن كل منا يؤمن بما يؤمن من  
عقائد واسرار ديانته ، أليس لانه وُلد في مكان معين ،  
وفي زمن معين من التاريخ ! « ان ايمان الصغار ، وايمان  
الكثيرين من الناس ، مسألة جغرافية » .

ثم اعتقد البعض من الفلاسفة انهم جديرون بان  
يبنوا مذاهب دينية واسعة ، فاخترعوا جملة براهين  
نظرية لعقائد ميتافيزيقية كوجود الله وخلود النفس ،  
وظنوا انهم بلغوا الى علم لا ينقض ، وهذا ادعاء مليء  
بالسذاجة والكبرياء معاً ، فليس في مثل هذه المواد  
براهين حاسمة ولا بيانات علمية حقيقية .

ليس هذا ما ينبغي لنا ان نبحث عنه . اننا نحتاج  
الى اعتقاد ، الى ايمان نختاره . فلنرَ ، اذن ، ان كان  
يوجد ، في حقل المواضيع الدينية ، قضايا ينبغي لنا ان  
نصدقها وأن نؤمن بها في قرارة نفسنا ، حينما نخلص  
النية . فان نحن عثرنا على مثل هذه القضايا تسكنها بها ،

كما يتسكك الغريق بجبل النجاة ، مهما اكتنفها من  
الغموض ومن المصاعب النظرية ، اذا اننا لا بد لنا من  
ان نضع حداً لرغائبنا وآمالنا .

نجد ، باديء ذي بدء ، قضيتين يتحتم على اخلاصنا  
الأخذ بهما :

( أ ) انا موجود ، ووجودي يتضح في شكل كائن  
ذي احساس ، وتفكير ، وارادة . هوذا حقيقة لا  
ريب فيها عندي ، فانا اشعر بانني في الوجود ألتذ  
وأألم ؛ أحب وأبغض ، وأفكر ، وأصمم ، وهذا  
الشعور هو اقوى وابلغ ، لدي ، من كل بيان وبرهان .  
أليس هذا ما ذهب اليه ديكارت حينما قال جلته  
الشهيرة : « انا افكر ، اذن انا موجود » ؟ وأليس  
هذا ، ايضاً ، ما أشار اليه القديس اغوستينوس ؟ بيد  
ان روسو لا يلجأ الى نفوذ هذين المعلمين اللذين سبقاه ،  
بل يدعونا الى ان نتأمل لذاتنا في ذاتنا لكي نكون على  
ثقة تامة من وجودنا .

( ب ) غير انني لست ، وحدي ، في الوجود ، بل  
يوجد عالم معي بكامله تحدث فيه حركات لا تنقطع .  
وكتب روسو يقول : « ان احساساتي تحدث في داخلي

بما انها تشعرني بوجودي ؛ غير ان سببها هو خارج عني  
لأنها تؤثر في بالرغم مني ولا استطيع ، من ذاتي ، ان  
أحدثها او ان أأشياء . لذلك أميز بوضوح ان احساسني ،  
الذي هو انا ، وان سببه ، او موضوعه ، الذي هو خارج  
عني ، ليس شيئاً واحداً .

والآن ، من اين آتي انا ، ومن اين يأتي هذا العالم  
الذي نراه وهذه الحركات التي نشاهدها فيه ؟ اننا  
نستخرج الجواب على هذا السؤال من تفكيرنا في اصل  
الحركة . الواقع هو ان المادة تبدو لنا على شكلين :  
فهي تارة في سكون ، وتارة في حركة . فان كانت  
المادة تستطيع ان تكون ، من غير ان تتحرك ، فليست  
الحركة ، اذن ، ضرورية لوجودها . انها ساكنة من  
نفسها ؛ اذن ، لا بد للحركة من ان تأتيا من خارجها .  
ثم اننا نميز بين نوعين من الكائنات المادية : الكائنات  
الحية التي تنتمي حركاتها ، كما يبدو ، الى مبدأ بداهة  
خاص بها ؛ ثم الكائنات الأخرى الجامدة التي تجري  
عليها الحركة من خارج عنها . لننظر ، بعد ذلك ، الى  
الكون في مجموعه . كل شيء يجري فيه بحسب نظام  
حيث لا أثر لهذه الحرية البدائية ، الذاتية ، التي نفلسها

عند الانسان والحيوان « . هوذا نحن ، اذن ، مضطرون الى الاعتقاد بان عالم الجماد يتحرك « بواسطة محرك خارج عنه . كتب روسو يقول : « لا يستطيع ان ارى الشمس تدور من غير ان اتصور ان قوة تسييرها » . من هنا ما دعاه النائب الاسقفي السافوي في كتاب « اميل » « عقيدته الاولى » و« قضية ايمانه الجوهريه الاولى » . ثم يقول روسو : « كلما راقبت فعل وردة فعل قوى الطبيعة التي تؤثر بعضها في بعض ، وجدت من الضرورة ان نصعد ، دائماً ، من نتيجة الى نتيجة حتى نصل الى ارادة فاعلة ندعوها العلة الاولى ؛ لاننا ان قدرنا وجود علل متسلسلة الى ما لا نهاية له ، كنا كأئنا لم نقدر شيئاً » . الخلاصة « أومن اذن بان ثمة ارادة تحرك الكون وتنعش الطبيعة » . هذا هو الركن الاول الراسخ ، الواضح .

وللحال ، نجد ما يتيح لنا ان نبني ركناً ثانياً :

ان لهذا العالم الذي نراه نظاماً عجيباً نشاهده في حركات الكواكب ، وفي الاعضاء ، والوظائف ، والغرائز التي تعمل على تكاثر وحفظ النباتات والحيوانات ، وفي الحاجز المنيع الذي وضعته الطبيعة بين الاجناس

المختلفة لكي تظل متميزة بعضها من بعض ، فكيف  
 نستطيع ، والحالة هذه ، ان نتجاهل وجود  
 « مقاصد » تسير هذه الطبيعة ؟ « انها لم تكنف بوضع  
 نظام ، بل اتخذت تدابير ثابتة لبقائه » . لابد ، اذن ،  
 للارادة التي تحرك الكون من ان تكون « قادرة  
 وحكيمة معاً » . « سواء أكانت المادة ازلية ام  
 مخلوقة ، او كان ، ثمة ، مبدأ سلبى ام لا ، فان الأكيد  
 هو ان الكل واحد تديره ارادة واحدة ؛ لأنني ارى  
 كل شيء مرتباً في نظام كلي واحد وسائراً نحو هدف  
 واحد . وهو حفظ الكل في النظام القائم » . من هنا  
 اراني ملزماً بان اقول : « ان كانت المادة المتحركة  
 تبرهن لي عن وجود ارادة تحركها ، فان المادة المتحركة  
 طبقاً لنظام تبرهن لي عن وجود حكمة تنظمها » .  
 هذه هي قضية ايماني الجوهري الثانية . لنضم ، الآن ،  
 هاتين القضيتين الجوهريتين الواحدة الى الأخرى ونؤمن  
 بوجود الله : « هذا الكائن ، الذي يريد ويستطيع ،  
 هذا الكائن الفاعل ، الذي يحتوي على مبدأ فاعليته  
 ضمن ذاته ، هذا الكائن ايأ كان ، الذي يحرك الكون  
 وينظم كل شيء ، اننى ادعوه الله ؛ ثم أضف الى هذا

الاسم صفات المعرفة ، والقدرة والارادة ، التي جمعتها ،  
ثم صفة الصلاح التي تليها حتماً .

ان هذه النتيجة هي هكذا حتمية حتى ان الذين  
يتنكرون لها يُساقون الى ان يقولوا عن العالم أشياء  
مضحكة . ليس للاتحاد اي مبرر ؛ ان العلاقة بين  
الحركة والمادة لا تفسر لها عند الملحد . أما فكرة  
القائلين بان « قوة عمياء تنتشر في كل الطبيعة » فليست  
« فكرة حقيقية » . ومنهم من يعزو النظام الذي نشاهده  
في الكون الى العدد الاكبر ، اي الى المصادفة ، وهذا  
الرأي ليس بالمعقول : « فلو قيل لي ان حروفاً مطبعية  
أُقيمت عرضاً واتفاقاً فألفت الـ ( إنييد ( l'Énéide )  
لما كلفت نفسي بان اخطو خطوة واحدة لكي اتحقق من  
صحة هذا القول ؛ ثم لو قيل لي انك تنسى كبر العدد  
الهائل من المرات التي أُقيمت فيها هذه الحروف عرضاً  
واتفاقاً ، لظل علي ان اعرف العدد اللازم من المرات  
الاتفاقية التي تنتهي بتأليف هذا الكتاب الضخم . بيد  
اني لا ارى من المرات سوى مرة واحدة ، واني أراهن ،  
بكل تأكيد ، على ان ليس للمصادفة اي دخل في هذا  
النظام » . ان الله موجود ، وهذا ما « يشعر » به

روسو ، ويُشعرنا به بدوره ، وهذا ما له « عندنا أهمية كبرى » .

صحيح ان الغموض يكتنف كيان هذا الاله الذي يؤمن به روسو : فكيف ندرك ما هو فهمه ، وما هي ارادته ؟ هل خلق العالم ؟ وكيف خلقه ؟ ما هي ازليته ، ولا نهايته ، وكلية قدرته ؟ هل هو منفصل تماماً عن العالم ، ام ينفذه من الداخل ؟... لا يوجد سوى جواب واحد على جميع هذه الاسئلة : « لست اعلم من كل ذلك شيئاً اكيداً ؛ ولكن ، ما همني ؟ » . يكفيني ان يكون وجود الله حقيقة لدي حتى انظم حياتي ، وافكاري ، وعواطفني ، طبقاً لهذه الحقيقة .

بيد ان الجدل لا ينتهي : فان كان هذا الاله كلي المعرفة ، وكلي العدالة ، وكلي الصلاح ، فكيف نفسر الشر الذي يتفاقم في العالم : الشر الجسدي ، والشر الروحي هذا الشر الذي يتذرّع به الملحدون لكي ينكروا وجود الله ؟

يبدو الجواب على هذا السؤال من الصعوبة بمكان ؛ ومع ذلك ، من الممكن توضيحه ، ولكن بعد توضيح ثلاث فئات من المسائل ذات الأهمية المعنوية الحاسمة .

٢) - قلنا ان الله ارادة حرة ؛ ولكن ، كيف  
نستطيع ان نؤكد ذلك ؟ ان عاطفتنا الباطنية  
المباشرة هي التي تتكفل ، هنا ، بطمأنتنا ، لانها  
تنبؤنا بحرية ارادتنا التي لا ريب فيها عندنا . انها نقطة  
رئيسية بذاتها وبناتجها .

يقول روسو : يستحيل علي ان ارتاب « في  
قرارة نفسي » بحرية ارادتي ، لانني اشعر بها شعوري  
بفكري ذاته ، واحققها باختباري الشخصي : انا حر  
في ان أثبت هذا الشيء او لا اثبته ، وفي ان استسلم لما  
اتأثر به او انتقده انتقاداً منهجياً . ان فكري لا يعمل  
سلبياً ، بل له الفعالية والحرية في ان يقارن ويميز بين  
الاسباب والعلائق ويحكم عليها نقياً او اثباتاً . ثم  
يضيف روسو قائلاً : « انني ادعي شرف التفكير الحر » .  
ان هذه الحرية ، يقول روسو ايضاً ، تتضح لي من  
اعمالتي التي يتطلبها جسدي . انكم تسألونني كيف اعلم  
ان ، ثمة ، حركات بداهية مباشرة ، فأجيبكم : لأنني  
اشعر بوجودها : فان اردت ان احرك ذراعي حركته  
لا لشيء إلا لأني اردت ان احركه . انكم عبثاً تحاولون  
ان تهدموا في هذا الشعور لانه اوضح من جميع براهينكم

في قرارة نفسي ؛ انه واضح وضوح وجودي ذاته ، .

لا ريب ، اذن ، في حرية ارادتي ؛ وهذا ما يحلني  
على الاعتقاد بحرية الارادة الالهية . لا شك في ان طبيعة  
هذه الحرية التي اشعر بها في داخلي لا تستطيع معرفتها ؛  
فاني اتساءل : « كيف تستطيع الارادة ان تحدث فعلاً  
جسدياً ، فأجيب : لست أعلم ؛ ولكنني اشعر ، في قرارة  
نفسي ، بأنها تحدثه . لانني لا اعرف حرية ارادتي  
ومفعولها الا من اعمالها ، لا في جوهرها ذاته . »

لا شك ايضاً ، في ان اشياء كثيرة تعترض حريتي :  
« لست مختيراً في حبي لخيري ، او في كرهني لما يضرني ،  
بل مستيراً » ؛ ولكنني حر في ألا اريد إلا « ما يصلح  
لي ، أو ما اظنه يصلح لي ، وذلك من دون ان يقرر  
ارادتي شيء غريب عني . ثم ، الا اكون سيد نفسي  
ان كنت لا استطيع ان اكون شخصاً آخر ؟ » .

اخيراً ، نقول عن حرية ارادتنا ، ما كان يقوله  
ديكارت عنها ، اي « انها مفهوم من مفاهيمنا المشتركة » :  
فان نحن وصفنا الارادة الالهية ، اذن ، بالحرية  
التامة ، فلن نكون قد اوتكينا حماقة : « ان مبدأ كل  
عمل هو في ارادة كائن حر . ليست كلمة الحرية هي

التي لا معنى لها ، بل كلمة الحتمية .

يستنتج روسو من كل ذلك نتيجة رئيسية : ان ما هو مادي محضاً يتلقى حركته من الخارج ثم ينقلها آلياً ، لذلك ليس هو بحراً ولا يمكنه ان يكون حرّاً . يسدّ اننا نجدنا ، نحن ، احراراً ونستنتج من ذلك ، حتماً ، اننا لسنا ماديين محضاً . « لا يمكن لاي كائن مادي فحسب ان يكون له مبدأ نشاطه في ذاته ، اما انا ، فلي . » لا بد ، اذن ، من ان يكون فيّ مبدأ روحي ، نفس لامادية تتميز عن جسدي وتوجه اعماله وتسيطر عليها . ان هذه الخلاصة مليئة باعظم النتائج الاخلاقية : « الانسان حر في اعماله ، وبما انه حر في اعماله ، فلا بد له من ان يحتوي على عنصر لامادي . هذه هي قضية ايماني الجوهرية الثالثة . »

لنحتفظ الآن ، جيداً ، بهذه النتيجة المزدوجة ، اذ لم يبق امامنا سوى خطوتين حتى نرى ذريعة الشر قد هان وحضها .

٣ - لا يكتفي التقليد المسيحي باعلان وجود النفس فينا ، بل يؤكد لنا انها خالدة . فماذا يجب علينا ان نفكر ؟

يجب ان نفكر ، اولاً ، ان ذلك ممكن ، وأن مصير النفس لا يرتبط ارتباطاً حتمياً بمصير الجسد . ان الجسد هو شيء مادي قابل للفساد والانحلال ، اما نفسنا فروحية وغير قابلة للانحلال ولا للفساد . عبثاً يعلن بعض فلاسفة القرن الثامن عشر في دائرة معارفهم (l'Encyclopédie) نكرانهم لخلود النفس اذ ليس لهم اي برهان مقبول على ذلك .

ثم اننا نرى ، في هذا العالم ، صالحين كثيرين يشقون ويتألمون ، وطالحين كثيرين يظفرون ويتنعمون ، وهذا ما تأسف له قلوبنا ، وتقلق له افكارنا . نحن نعلم ، حق العلم ، ان عناية عادلة وصالحة تدير الكون ، لذلك يتحتم علينا ان نعتقد بان التشويش الذي يشككنا ، في هذا العالم ، لا يمكنه ان يكون إلا تشويشاً ظاهرياً ، ما لم يكن مصير الانسان بعد الموت الفناء المطلق . لذلك ينبغي لنا ان نعتقد بان الشخص البشري لا يتلاشى بعد الموت ، وبأن الظلم الذي يشككنا في هذه الحياة لا بد من ان يتساوى بعدها ويحل محله العدل . « كلما خلوت الى نفسي وسألت ذاتي سمعت هذه الكلمات تدوي في اعماق قلبي : كن صالحاً تكن سعيداً » . ان

انتصار الاشرار في هذا العالم هو الذي يفرض علينا  
هذه الخلاصة : « لا ينتهي كل شيء في هذه الحياة » ؛  
لا بد من وجود حياة ثانية يتحقق فيها العدل .

والآن ، ماهي هذه الحياة الثانية ؟ ماذا يحدث فيها ؟  
هل بقاء النفس بعد الموت بقاء مؤقت ام بقاء ابدى ؟  
لا يستطيع احد الاجابة على هذه الاسئلة ، ويظل من  
الاصح ألا نحكم فيها حكماً قاطعاً . مع ذلك ، يمكننا  
القول إن فكرة خلود النفس ليست فكرة مستحيلة ،  
او غير معقولة : « وبما ان هذه الفكرة تعزيني ،  
وبما انها ليست بالمستحيلة فلماذا اخاف من تبنيها ؟ » .

على كل حال ، يجب ان نعتقد بان النفس ، طالما  
ظلت حية بعد موت الجسد ، فانها تحتفظ بذاكرتها ، وإلا  
فكيف يستطيع المجرم ان ينال عقابه ان هو لم يتذكر  
خطاياہ الماضية ؟ وكيف يشعر الصالح بالسعادة ان لم  
يكن يعلم ان هذه السعادة هي جزاء اعماله الصالحة .

٤٤- ) اليك ، الآن ، اهم نقطة في فلسفة روسو . لا  
شك في اهمية النتائج التي توصل اليها ؛ ولكن ، هل هي  
كافية لكي نستخلص منها ما يجب ان نصنع ، وكيف  
يجب ان نسلوك في كل زمان ومكان ؟ يجيب روسو

بالإيجاب . انه يعيش في عصر يسيطر عليه تفوق  
الفيلسوف الانكليزي لوك الذي ينكر مواهب الانسان  
الفطرية ، خلافا لما ذهب اليه ديكارت واتباعه ، ويعيدها  
الى الاختبار الحسي والتربية .

اما روسو فانه يخطئ، فلسفة لوك ويعتقد بوجود الفطرة  
في الانسان . يكفيه ، لكي يبرهن على صحة نظريته ،  
ان يلاحظ كلبه . ان الكلب يندفع بفطرته ، ومن غير  
ان يلقيه احد ، الى مطاردة النواجذ وقتلها من غير ان  
يأكلها ، وهو يتخذ أمام اليد التي تهدده افضل وضع  
تضرع لرد غضب مهدده . ان هذا الدليل قاطع على وجود  
الفطرة والغرائز التي تستطيع التربية أن تنميها ، أو أن  
تشلها ، ولكنها لا تستطيع ان تخلقها . فكيف نعجب ،  
اذن ، من وجود هذه الفطرة عند الانسان وهي  
موجودة عند الحيوان ؟ بيد ان روسو يعتقد بان التأمل  
الصادق يبين لنا وجود طبيعتين مختلفتين في الانسان يدل  
عليها نوعان متناقضان من الغرائز والرغائب .

نشاهد ، أولاً ، سلسلة كاملة من الغرائز الطبيعية التي  
تدفعنا الى إشباع ما يسميه روسو « مصالحنا المادية » ،  
اي ما من شأنه ان يحفظ شخصنا وينمي بأي ثمن : كل

شيء لي ، ولو على حساب الغير ؛ كل شيء لحفظي ؛ كل شيء لتنميتي ؛ كل شيء لمقدرتي ؛ كل شيء لدفع الألم عني ؛ كل شيء للذاتي . هذه هي القاعدة هنا .

ولكننا نشاهد ، في ذات الوقت ، شيئاً يختلف كل الاختلاف : مجموعة من المؤهلات الغريزية ، المولودة معنا هي أيضاً ، اي ما يسميه روسو « المصلحة الروحية » ، وهي مصلحة تتعارض ، دائماً ، مع مصالحنا المادية .

تقسم هذه المؤهلات الى نوعين :

تعجب روسو ، منذ كتاباته الاولى ، من احتواء نفسنا على هذه الميول الفطرية الى الانعطاف ، هذه الميول التي تتمثل بعواطف الشفقة التي يمنح اليها ، تلقائياً ، الانسان الاكثر بربرية فتحمله ، ليس فقط على تجنب القسوة ، بل ايضاً على الاعانة .

ثم لفت انتباه روسو ، بعدئذ ، شيء آخر أشد عجباً ، وهو الضمير الوجداني . واليك صفحة شهيرة وصف بها روسو هذا الضمير الوجداني : « ايها الضمير ! ابتها الغريزة الالهية ، والصوت السهوي الخالد ! ايها الدليل الامين الذي يهدي كائننا جاهلاً ، محدوداً ،

ولكنه عاقل وحر ؛ ابها المميز المعصوم بين الخير والشر الذي يجعل الانسان شبيهاً بالله ! أنت الذي ترفع طبيعة الانسان وتصلح اعماله ؛ بدونك لا اشعر في داخلي بشيء يرفعني فوق مرتبة الحيوان سوى هذا الامتياز المحزن الذي استطيع به ان اسير من ضلال الى ضلال وراء بصيرة لا هادي لها ، وعقل لا مبادئ فيه ! ، .

ولنشرح ، الآن ، هذا الهتاف حرفاً بحرف :  
الضمير غريزة شبيهة بغريزة الطائر الذي يبني عشه .  
الضمير غريزة الهية مقدسة ، ولذلك فهو يفوقنا بمصدره ذاته . الضمير دليل اكيد ، معصوم ، يجب علينا ان نستشير في جميع الظروف ونلتبع الارشادات التي يسديها لنا . يحتوي الضمير ، اذن ، على القاعدة الاساسية التي يجب ان توجه اعمالنا في كل زمان ومكان .

الضمير فطري في الانسان ، ولكن يجب ان نفهمه .  
لا يوحى لنا الضمير ، آلياً ، ماذا يجب ان نصنع في كل ظرف ، بل علينا ان نفتكر في ذلك ونبحث عنه بفطنة وانتباه . مستندين الى هذه الحاسة الفطرية ، الباطنية ، البداهية ، الامينة التي نعرف بها ، بصورة

حدسية ، غريزية ، ان تختار الاتجاه الأوحـد الصالح من بين الاتجاهات التي يعرضها علمنا عقلنا . « ليست معرفة الخير ، حتماً ، محبته ؛ وليست معرفتنا اياه فطرية ، بل حينما يبينه عقلنا لنا ، يدفعنا ضميرنا الى محبته . ان هذا الدافع هو الفطري فينا . »

لا يستطيع احد ان ينكر وجود هذا الضمير في الانسان . كم من اعمال لا يمكننا شرحها ، ولا فهمها ، ان كنا لا نهتم الا لمصالحنا المادية ؛ كيف نفهم ، ان لم يكن لنا ضمير ، تحمسنا لفضائل الصالحين وكرهنا لجرائم الاشرار لا لشي إلا لأن هؤلاء اشرار واولئك صالحون ؟ وكيف نفسر اندفاع البطل الذي يمضي الى الموت حباً للصالح العام ؟ وكيف نفسر سلوك هذا المـُـخْلِـف الانكليزي الذي يذكره روسو ، سنة ١٧٦١ ، في رسالته الى صديقه دوفرفيل ؟ كأن يعرف هذا المـُـخْلِـف ان المتهم الذي يحاكمه بريء لانه هو الذي كان قد ارتكب الجرم المنسوب الى المتهم ومن مصلحته المادية الكبرى ان يحكم المـُـخْلِـفون زملاؤه على المتهم كما كانوا يريدون وتنتهي القضية ؛ ولكنه حجب صوته ، بينما كان الاجماع ضرورياً للحكم والمـُـخْلِـفون مـُـخْلِـفون وصائمين حتى

حصوله هذا الاجماع . ظل مثابراً على حجب صوته ،  
ولو تعرض لتحويل الاتهام عليه ، حتى أجبر المـُـخلفين  
على تبرئة المتهم البريء . فهل كان صنع هذا الصنيع  
لو كان ما قاله « كـنـط » حينما سـمى الضمير « الصوت  
النحاسي » غير صحيح ؟

أكـثـد روسو ، بالرغم من اقوال اولئك الفلاسفة  
الارتيائيين ، ومن بينهم مونتاني ، ان الضمير يقول  
للناس ، في جميع الازمنة والامكنة ، ذات الشيء :  
« انظروا الى جميع امم العالم ، وطالعوا جميع  
التواريخ ... تجدوا ، في كل مكان ، ذات مفاهيم  
العدل والاستقامة ، وذات المبادئ الاخلاقية ، وذات  
النظرة الى الخير والشر . هل تجدون » في اي بلد من بلدان  
العالم احداً يجرّم من يحافظ على ايمانه ، أو من يشفق  
على سواه ويحسن اليه بسخاء ، ويحتقر رجل الخير ،  
ويكرم الرجل الخادع ؟ » .

ألا يكفي كل ذلك للتأكد من وجود الضمير ؟  
« لا حاجة للعلم ، ولا للفلسفة ، لكي يكون الانسان  
صالحاً وفاضلاً ؛ ولا حاجة لحلاّلي مشاكل الضمير  
لكي يعرف الانسان ما يجب عليه ان يفعل . ليسأل

كل انسان ضميره باخلاص فيملي عليه حدسه المباشري  
السلوك الذي يجب ان يسلكه . ولا احتياح إلا الى  
استشارة نفسي في ما اريد ان افعل : فكل ما اشعر به  
انه الخير ، كان خيراً ؛ وكل ما اشعر به انه الشر ، كان  
شراً . انها لقاعدة بسيطة وحاسمة لا يحتاج الانسان  
إلا الى اتباعها لكي يكون فاضلاً .

ولكن ، لماذا يريد الانسان ان يكون فاضلاً ؟ لماذا  
لا يعيش من غير ان يهتم للضمير ولأوامره ؟ هنا نجد  
في جواب روسو بعض الغرابة .

اعتقد روسو بأنه اعطى البراهين الكافية على وجوب  
الايان بالعناية الالهية ، وبحرية الانسان ، وببقاء النفس  
بعد الموت . انه ، اذن ، ضمن الشروط التي يعتبرها  
اللاهوتيون ضرورية وكافية لبناء الاخلاق . انهم ،  
جميعهم ، يدعون الانسان الى الافتكار في انه اذا أطاع  
الله كافأه واذا عصاه عاقبه ، ويخلصون الى هذه النتيجة :  
يجب على الانسان ان يطيع ضميره الذي هو صوت الله  
وذلك احتراماً لله ، وحباً له ، وخوفاً من غضبه ، غير  
ان روسو لا يريد ان يكون الانسان فاضلاً لكي ينال  
مكافأة او يتجنب عذاباً آتياً من مصدر خارجي ، لا

شيء ، في نظره ، يشوه الفضيلة كاتباعها طمعاً بمصلحة مادية .

كان دوفرثيل قد سأل روسو ان كان لا يجب على الانسان ، لكي يسلك سلوكاً اخلاقياً حقيقياً ، ان يعمل خارجاً عن كل اهتمام بآية مصلحة له . وقد اكد « كنت » ، في ما بعد ، انه لا يكفي للانسان ، لكي يكون قاضلاً ، ان يقوم بواجبه ، بل يجب عليه ، ايضاً ، ان يقوم به بدافع الواجب فحسب . لا شك في ان « كنت » كان قد تأثر بروسو في تفكيره هذا .

يقول روسو ، في هذا الصدد ، ما مفاده : ان الذي يعمل طمعاً بفائدة مادية يخرج عن الاخلاق ، حتى ولو اتبع القواعد الاخلاقية ؛ فالذي لا يمتنع عن السرقة الا خوفاً من العقاب ، او لا يصنع الحسنة الا لكي يظهر امام الناس ، لا يكون سوى تاجر يبيع فضيلته مقابل ثمن فلا يعمل إلا تجنباً للخسارة وطمعاً بالربح .

ولكن يوجد ، ثمة ، قضية اخرى ينبغي لنا مواجهتها وهي ان الذي يعمل بحسب ضميره يشعر بلذة معنوية كبرى وبرضى كامل عن نفسه امام نفسه ؛ والذي يعمل ضد ضميره يشعر بوخز ضمير حاد وباحتقار لنفسه مؤلم قد

يقوده الى الانتحار . لا شك في ان من يطيع ضميره لكي يحظى باللذة المعنوية ويتجنب وخز الضمير يعمل مدفوعاً بمصلحته ؛ ولكن هذه المصلحة ليست ، هنا ، مادية ولا تجارية ، بل روحية ، وفاضلة .

غير ان الفضيلة لا تكفي ، كما يزعم الفلاسفة الرواقيون ، لكي تجعل الانسان سعيداً على هذه الارض ، ولكنها ضرورية ، على كل حال ، لكي تجنبه الشقاء وعذاب الضمير . ان جهنم « في قلب الاشرار » خلال هذه الحياة ، ولا سيما في الحياة الاخرى .

٥٥ - ) اصبحنا الآن مؤهلين لكي نفهم وجود الشر ونرد على الملحدّين .

بما ان ، ثمة ، عناية الهية ، فكل شيء يجب ان يكون صالحاً عند خروجه من بين يديها . مع ذلك ، يوجد شرور في العالم - ولكن ، علينا ألا نضع الذنب إلا على الصورة التي نستعمل بها ، نحسن الاحرار ، حريتنا - لولا اهوؤنا ، وحقاقتنا ، وجنوننا ، لكان كل شيء حسناً . اننا نتشكى من الشرور التي تلتاب البشرية ، ولكننا نحسن الذين صنعنا هذه الشرور : « أزيلوا تقدمنا المشؤوم ، وضلالاتنا ، وعيوبنا ، أزيلوا

عمل الانسان فيصطلح كل شيء .

ولكن ، رب قائل يقول ان الله هو المسؤول رغم كل ما قدّمتم ؛ أما كان يمكنه ان يقصي عنا هذه الامكانيات التي قادتنا الى عمل هذا الشر ذاته الذي عملناه ؟

إن هذه النظرة سطحية ، يجيب روسو .

أن يكون باستطاعتنا ان نستعمل استعمالاً سيئاً هذه الامكانيات التي تجعلنا بشراً ، ليس ذلك سبباً لحرماننا مما ينحننا تفوقنا الوحيد . « هل كان من الضروري حصر الانسان في غرائزه كالبهائم لمنعه من ان يكون شريراً ؟ لا ، يا اله نفسي ، لن الوملك ابدأ على جعلك الانسان شبيهاً بك لكي يستطيع ان اكون ، انا ، ايضاً ، حراً ، وصالحاً ، وسعيداً مثلك . »

ثم ان من الممكن ان تكون غاية الكون وجود صالحين يتمتعون ، منذ هذه الحياة وبعدها ، بالرضا الباطني الذي تحدته الفضيلة . ولكن ، ليس من المستطاع وجود هؤلاء الصالحين إلا اذا كانوا احراراً في عمل الخير ، وكذلك في عمل الشر . « أن القبطة القصوى هي التي تبسج من رضا الانسان عن نفسه ؛ ونحن لم

وجد على الارض احراراً ، ثغوبنا شواتنا وبردعنا  
ضميرنا ، الا لكي نكتسب هذا الرضا . ذلك بالاضافة  
الى ان الشرور التي تهاجمنا هي التي تتيح لنا ، بالتغلب  
عليها ، ان نستحق الفرح الداخلي الذي يشيعه فينا  
الثبات والتسليم .

هذا ما يكفي ، الكفاءة التامة ، لتبرير العناية  
الالهية . « لا تبحث ، ايها الانسان ، عن صانع الشر ؛ ان  
صانع الشر هو انت . اعرف ، قبل كل شيء ، ان  
تتجنب عمل الشر باتباعك أوامر ونواهي ضميرك ، ثم  
اغتنم فرصة الظروف التي تؤملك لكي تكتسب ،  
بواسطة رضوخك ، من جهة ، ونشاطك ، من جهة  
ثانية ، رضى تاماً عن نفسك . حينئذ لن تكون  
ملحداً ولا خرافياً بل متديناً ؛ لان الدين هو الاخلاق ،  
والثقة بالله ، والقناعة بما قسمه الله لك . « ان القلب  
الصالح هو هيكل الله . لذلك كل دين يدفع الى هذا  
السلوك ، ويقدر ما يدفع اليه ، يكون محترماً ايأ كان  
نوع عبادته وطرقها .

٣ - هذه هي المبادئ الفلسفية التي سادت افكار  
روسو ، ان لم تكن سادت سلوكه . انها تلقي نوراً ،

بوجه خاص ، على عقائده السياسية والتربوية معاً ، وهي مبنية على فكرة واحدة ، اي الفكرة التي حاولنا اظهارها : ان العناية الالهية التي تدير الكون هي صالحة تحديداً . لقد كان من شأن صلاحها ، اذن ، ان تعطي كل نوع من الكائنات الطبيعة التي تلائم ، اي التركيب الجسدي ، والمؤهلات الفهمية ، والميول والفرائز التي يحتاج اليها لكي يحيا ويتكاثر . هكذا منحت العناية الالهية النباتات ، والحيوانات ، والبشر ، منذ الساعة الاولى ، طبيعة تناسب مصيرهم ؛ ولذلك كان كل ما يلائم هذه الطبيعة صالحاً ، وكل ما يشلها ويخنقها ، رديئاً . وبما ان منظمي السياسة ، وواضعي المناهج التربوية ، قد جهلوا هذه الحقيقة ، لذلك كانت انظمتهم ومناهجهم في العالم سيئة ؛ ولذلك ، ايضاً ، اذا اردنا اصلاحها ، وجب علينا ، قبل كل شيء ، ان نتذكر ما كان عليه « رجل الطبيعة » . لقد حاول روسو ان يقول لنا هذا في مقالته عن اصل وأسس عدم المساواة بين الناس :

ان هذا الرجل ، رجل الطبيعة ، لم يعد يمكننا ان نعرفه تاريخياً لانه تحول وتلاشى منذ ما قبل التاريخ ،

ولكن التفكير يحوّلنا تصور الخطوط الكبرى لما كان عليه . يصفه لنا روسو عارياً « سادراً في الغابات ، لا صناعة له ، ولا نطق ، ولا مسكن ، ولا حروب ، ولا حاجة الى ابناء جنسه ، ولا رغبة في اذية اي منهم ، حتى ولا معرفة احد منهم شخصياً » . ليس هو « عرضة الا لقليل من الشهوات » ؛ انه « يكفي نفسه بنفسه » ، وليس له إلا « العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة » ولا ينظر إلا الى « ما يظنه مفيداً له » وقد عزا اليه روسو غريزتين اساسيتين ، الغريزة الاولى تدفعه الى المحافظة على وجوده : « ان الحيات الوحيدة التي يعرفها في العالم هي الطعام ، والانثى ، والراحة ؛ أما الشرور الوحيدة التي يخشاها فهي الجوع والجوع » . والغريزة الثانية هي استعداد « للرحمة » ، وكره فطري لرؤية ابن جنسه يتألم ، ومبدأ سخاء ، وسمح ، وانسانية ، ورعاية ، وصداقة . « يتبع رجل الطبيعة ، اذن ، المثل القائل : اعمل صالحك باقل ضرر ممكن تسببه للغير » وحينما يأكل ويشبع « فهو في سلام مع الطبيعة كلها ، وصديق جميع ابناء جنسه » انه « صالح من طبيعته » .

شيئان ، فقط ، يميزانه ، اذن ، عن الحيوانات التي يعيش فيما بينها : أ - ان له ارادة حرة بدلاً من ان يكون اسيراً لغرائزه ، وان هذه الارادة الحرة هي التي تميزه من الحيوانات اكثر مما يميزه منها الفهم ؛ ٢ - انه قابل للاكمال . تدور الحيوانات ، دائماً ، في ذات الدائرة ؛ اما الانسان ، فان باستطاعته ان يخترع إما لحيره وإما لشره . من هذا الامكان ينتج «تقدمنا المشؤوم» مصدر جميع بلايانا . ان حالة الانسان الطبيعية هي اسعد حالاته جميعها . يقول اصحاب « دائرة المعارف » ان حالة الانسان الطبيعية هي حالة شقاء ؛ اما روسو ، فيقول : « أود ان يقولوا لي ما هو هذا الشقاء الذي ينسبونه الى رجل الطبيعة ، واي شقاء يمكنه ان ينتاب كائناً حراً ، مطمئناً القلب ، سليم الجسم » .

بيد ان هذه الحالة الطبيعية ، المطمئنة ، السليمة ، قد تلاشت تحت ضغط ظروف يحللها روسو على هواء ، وتلاشت معها حرية الافراد والمساواة المعنوية التي كانت سائدة فيما بينهم . لقد جرى هذا التحول طبقاً لتطور تاريخي يذكر روسو خطوطه الكبرى : «أنا نرى ، أولاً ،

وضع قانون وحق الملكية الفردية ؛ ونرى ، ثانياً ،  
اقامة المحاكم ، ونرى ، ثالثاً واخيراً ، تحويل السلطة  
الشرعية الى سلطة استبدادية . فالمرحلة الاولى خلقت  
الفقراء والاغنياء ؛ والمرحلة الثانية خلقت الضعفاء  
والاقوياء ؛ والمرحلة الثالثة خلقت العبيد والاسياد ،  
وهي اقصى درجات عدم المساواة التي تنتهي اليها جميع  
المظالم .»

من هنا نبعث الشهوات الضارية ، شهوة التسلط  
والحسد ، وحب الذات الجامح الذي يدفع الناس  
الى حب « الظهور » ويتمثل بجمع اشكال البذخ  
والاحتيال ، وبجميع النقائص التي ترافقه . لا ، لم  
يسهم البذخ ، ولا الادب ، ولا الفنون ، في سعادة  
البشر ، بل في إحراجها وإفسادها .

يعلم روسو ان بعث حالة الانسان الطبيعي امر  
مستحيل ؛ ولكن ، ليس من المستحيل الوقوف على  
فوائدها الاساسية بالسير طبقاً لذكرى ما « يلائمها  
سياسياً وتربوياً .

أ ) ما هي ، اذن ، اهم فوائد حالة انسان  
الطبيعة ؟ . يجيب روسو بانها : أ - حرية العمل ؛ ب -

المساواة المعنوية . يولد الانسان حراً » ولكننا نراه في القيود في كل مكان ، ؛ ويولد الناس متساوين في الكرامة ، ولكننا لا نرى اية مساواة في اي مكان بينهم . من هنا تنبت هذه المشكلة : كيف السبيل الى اقامة حالة اجتماعية يتحقق فيها ، اولاً ، حماية متساوية لجميع المواطنين ؛ وثانياً ، حرية مضمونة لكل فرد ؟ يعتقد روسو ان من الممكن العثور على حل لهذه المشكلة ، وقد بحث عن هذا الحل في كتابه « العقد الاجتماعي » .

يوجد طريقة تتيح لكل انسان ان يشعر بانه حر في مجتمعه ، وبان حقوقه محترمة ، وذلك ببناء هذا المجتمع على عقد او على ميثاق اجتماعي ، اي على التزام شرعي يتضمن « تنازل الفرد عن شخصيته وعن جميع حقوقه لمجتمعه » . يجب على كل من يريد ان يكون مواطناً في مجتمع ان يرضى بوضع « شخصه وكل سلطته تحت تصرف وادارة الارادة العامة » ؛ فان لم يفعل ، « فهو حر في ألا يفعل » ، تؤجّب عليه ان يبحث عن جو آخر يلائم رغائبه .

اما الذين يقبلون بهذا التدبير الاجتماعي فانهم لا

يلبثون ان ينعموا بفوائده . انهم ، قبل كل شيء ، وبالرغم من طاعتهم وخضوعهم للشرائع ، يطلوبون احراراً ، لأن الارادة العامة هي التي تسن هذه الشرائع ، ولأن المواطنين ، جميعاً ، قرروا ، ببلء ارادتهم ، ان ينظروا الى الشريعة نظراً الى ما هو صادر عن ارادتهم . فان هم خضعوا لها ، فانهم يخضعون ، اذن ، لأنفسهم . ثم انهم لا يستطيعون ان يعتبروا اية شريعة ظالمة بحقهم ، لأن القاعدة تقول : لا ظلم بحق من يرضى . والحال ، لقد رضي المواطن ، ببلء ارادته ، بالخضوع للارادة العامة ؛ وبما ان هذه الارادة هي التي تسن الشرائع ، فحينما يخضع لها فانه لا يخضع إلا الى ارادته ذاتها ؛ فكيف يستطيع ، عندئذ ، ان يعتبر نفسه مظلوماً ؟

اخيراً ، ان القرار الذي يجعل من سكان بلد ما مواطنين ينظر ، بادىء ذي بدء ، الى جميعهم نظرة مساواة : بما ان كلاً منهم يضع ذاته بكامله تحت تصرف المجموع ، فان المساواة تكون قائمة بذلك ، فيما بينهم .

لكن ، يجب ألا يغيب عن ذهن احد ان جميع

المواطنين الذين قبلوا بالميثاق يرتبطون به ارتباطاً لا تنقسم عراه ، ويطيعونه ، جميعاً ، وبلا استثناء ، تحت طائلة القسر والارغام عند الاقتضاء . « كل من يرفض ان يطيع الارادة العامة يُرغم على طاعتها ، وهذا يعني انه يُرغم على ان يظل حراً » ، اي ان يظل منسجماً مع قراره الحر الاول .

ان هذه المبادئ جد بسيطة كما يبدو ، وهي تحفظ ، بالتساوي ، كرامة وحرية كل مواطن . ولكن الغموض ينتشر امامنا حينما نذهب الى أبعد ، اذ كيف يجب ان نفهم هذه الارادة التي يتنازل لها جميع المواطنين عن جميع حقوقهم ؟

لا يتألف مجتمع تألفاً عقلياً ، مضبوطاً ، الا حينما يرضى جميع اعضائه ، بالاجماع ، بشرطه الاول . فهل يجب ان نستنتج من ذلك ان الارادة العامة ، يجب ان تكون هي ايضاً ، اجماعية ، لكي تكون شرعية ؟ شعر روسو بحجاجة الموقف فبادر الى رفض هذه النظرية رفضاً باتاً وقال : ان هذه الارادة تُعتبر عامة حينما تكون هذه الارادة ارادة الاكثرية ، وذلك بعد استشارة جذرية ، مطلقة . فالقانون الذي يقرره ،

بالاقتراع الصحيح ، نصف المواطنين بزيادة مواطن واحد  
'يعتبر قانوناً ساري المفعول .

ولكن ، حتى ولو افترضنا وجود ارادة اجماعية في بلد  
ما ، فان هذه الارادة لا تعتبر عامة إلا اذا كانت تتعلق  
بمصلحة عمومية لا بمصلحة خاصة . وقد كتب روسو  
يقول : « ليس عدد الاصوات » . هو الذي يحدد  
الارادة العامة ، بل المصلحة المشتركة التي توحد هذه  
الاصوات .

من هنا ثلاث نتائج :

١ ) ان الارادة العامة تكون دائماً قوية بما تتطلع  
اليه من الخير العام ، وبقدر ما تتطلع اليه .

٢ ) ولكن ، مهما كان قصد الارادة العامة  
مستقيماً ، فهذا لا يعني انها معصومة ، لانها ليست  
دائماً منارة ، ولأن حسن النية لا يمنع من الوقوع في  
الخطأ . « اتنا نريد دائماً خيراً ، ولكننا لا نراه دائماً » .

٣ ) لذلك يجب ألا يكون قرار الارادة العامة غير  
قابل التعديل . يبدو كل قانون لازماً في ظروف معينة ،  
ولكن هذا اللزوم لا يجوز ان يمنع من تعديل القانون ،  
او من الغائه ، حينما تزول الظروف التي اوجبت

ويصبح مزعجاً .

اخيراً ، تكون الارادة العامة هي الارادة الاكثرية عند اصدار قانون يتوخى المصلحة العمومية . فلسطة هذه الارادة يجب ان يتنازل كل فرد يريد ان يكون مواطناً ، تاركاً وضعه الاول ، اي حالته الطبيعية . بيد ان هذا المواطن الجديد لا يخسر شيئاً بابدال حالته الاولى من حالته الثانية ، لانه يكون قد أبدل « شيئاً مترجراً ، وغير ثابت ، من شيء افضل وأثبت » ، ورضي بما يحول « حيواناً جاهلاً ، محدوداً » ، الى « كائن فهيم ، الى انسان » . فليس المجتمع فاسداً بمجرد كونه مجتمعاً ، بل بقدر ما يكون بعيداً عن العقل والعدل . يستخلص روسو من هذه المبادئ جملة نتائج نذكر

اها :

١ ) حالماً بتقييد الافراد بالميثاق الاجتماعي لا يبقى لهم حقوق خاصة ، اذ انهم قبلوا بان يطيعوا ، في كل زمان ومكان ، قرارات الارادة العامة . « بما ان التنازل يجري بلا تحفظ ... لا يبقى لافراد المجتمع شيء خاص يمكنهم ان يطالبوا به الارادة العامة » .

٢ ) لا يمكن للارادة العامة ، في ما يتعلق بسن

الشرائع ، ان تتنازل عن سلطتها لاحد ايا كان ، بل يجب ان تبقى ، هي وحدها ، سيدة التشريع .

٣) غير ان الارادة العامة لا يمكنها ان تطبق وتنفذ الشرائع التي تسنها ، بل تمهد الى موظفين في تطبيقها وتنفيذها تحت اشرافها ، وهؤلاء الموظفون يُدعَوْنَ « السلطة التنفيذية » . انهم خدام الشعب ويتقاضون راتباً لقاء خدماتهم . فللشعب ، اذن ، واجب مراقبتهم ، بلا انقطاع ، وتشجيعهم ، ان هم أحسنوا الخدمة ، او إقالتهم ان هم اساؤوها . انهم يمارسون ، باسم الشعب ، « السلطة التي خولهم اياها ، والتي يستطيع ان يضع لها حدوداً ، وان يعدلها ، وان يستعيدها حين يشاء » . لقد عاش الناس في البلدان ذات الملكية المطلقة السلطة تحت نظام حكم ضال ، فاسد الوضع ، لان السلطة لا تنحصر في افراد ، منه يزين عهد الله اليهم في رعاية الامم ، بل تنحصر في هذه الامم ذاتها .

٤) يجب ألا ننسى ، من جهة اخرى ، ان الارادة العامة تستطيع ، في كل حين ، ان تخطيء ، بالرغم من نياتها الحسنة . وهذا الامكان يبدو مقلقاً بقدر ما يبدو

من الشرائع صعباً : « يلزم آلهة لكي يسنوا شرائع للبشر » . فالشعب الأكثر تنويراً هو ، اذن ، الشعب الذي : ١ - يعهد الى مشرع حكيم لكي يسن له شرائع تدخل في حسابها ، كما يريد مونتسكيو ، مناخ البلاد ، وكثافة السكان ، وخصب التربة ، وظروف شتى تعود الى الزمان والمكان ؛ ٢ - يحفظ للاكثرية حق وحرية قبول او رفض هذه الشرائع . مع ذلك ، تظل المهمة دقيقة ، وشاقة ، حتى في هذا التدبير . ألا يقتضي لأكثريّة الشعب ، لكي تستطيع ان تحكم على الشرائع المطروحة على التصويت ، ان تعرف ، مسبقاً ، ان تنتخب مشرعها ، وان تقدر قيمة الشرائع المروضة ؟

هـ ( ) لنذكر ، اخيراً ، ثلاثة آراء شهيرة لروسو : أ ( الدولة المتضخمة تضعف ؛ « بقدر ما يمتد الرابط الاجتماعي ، بقدر ذلك يرتخي ؛ فالدولة الصغيرة تكون نسبياً ، وبصورة عامة ، أقوى من الدولة الكبيرة » ب ( لا افضلية مطلقة بين شكل دولة وشكل دولة أخرى . « بوجه عام ، الحكومة الديمقراطية تصلح للدول الصغرى ؛ والحكومة الارستقراطية تصلح للدول المتأخرة ؛ والحكومة الملكية تصلح للدول الكبرى » ؛ ج ( كل

مواطن ملزم بأن يكون له دين ، أو بأن يؤمن ، على الأقل ، بهذا الدين الطبيعي الذي ذكرنا قضاياها سابقاً ؛ لأن المواطن الذي له معتقدات دينية هو وحده الذي يقدم المواطنة ضماناً حقيقية وكافية . ان الملحدين جميعهم عرضة للشك والارتياب ؛ فليهاجروا الى غير مكان .

هذه هي العناصر الاساسية لعقيدة روسو السياسية . لا شك في انه كان يتوخى المحافظة على الحريات الاولى بين اناس الطبيعة . لكن ، يبقى علينا ان نعرف هل يفضي تطبيق ما قال به الى المحافظة عليها ؟ هل يكفي ان يكون القانون صادراً عن اكثرية قد تكون غير مستنيرة ، لكي لا يكون جائراً ؛ وهل يفقد الفرد حقوقه جميعها بمجرد قبوله بالميثاق الاجتماعي حتى ولو اتضح ان الارادة التي اصدرت القوانين كانت جاهلة وحمقاء ؟ وهل يكفي ، لكي تسود العدالة مجتمعاً اضاعها عبر التاريخ ، ان ترضى اكثرية غير متعلمة ، ولا مستنيرة ، ولا حكيمة ، بقوانين وضعها مشرع انتخبته هي قد لا يكون افضل منها ؟

لقد طرح الفلاسفة منذ افلاطون حتى اليوم هذه

الاسئلة التي تتلخص بسؤال واحد: هل تستطيع اكثرية جاهلة ومتحيزة وضع تشريع عادل ، مناسب ، حكيم ، يحتوي على ضمانات كافية ؟ لا يزال الكثيرون يشكون بهذا الامكان بالرغم مما ذهب اليه روسو .

ب ) ان ما هو صحيح على الصعيد السياسي ، هو صحيح ، ايضاً ، على الصعيد التربوي . ان نسيان واحتكار غرائز الانسان الاولى هو الذي افسد كل شيء ؛ وحينما فسد المجتمع لم يعد يستطيع ان يعطي سوى تربية فاسدة . ولكن ، بما ان المجتمع قابل للاصلاح ، فالتربية ، ايضاً ، هي قابلة للاصلاح .

كيف يفسد المجتمع هذه التربية التي يتشكى منها روسو ؟ اليك الشرح: حالما تبلغ العائلة درجة كافية من اليسر ، ومن الاعتبار الاجتماعي لا تعود تفتكر الا في ان تتخلص من الولد حتى سن البلوغ ؛ فتسلمه ، اولاً ، الى مريض تسجنه في قمع تجمد له ذراعيه وساقيه لكي تذهب هي الى اشغالها . ان التغذية التي تقدمها الممرض للولد غير كافية . ثم ، بعد سن الطفولة ، يرسل الولد إما الى 'مرب' ، واما الى معهد ، واما الى دير . فالمرابيهم ، قبل كل شيء ، بان يجعل من تلميذه مدعاة فخر ،

وشاباً لامعاً في المجالس . اما المعهد والدير ، فانهما سجنان ملطفان تحشي فيهما ادمغة الطلاب بشتى الافكار والآراء ، وذلك بواسطة سلسلة من العقوبات ، والمكافآت ، والمنافسات ، لكي يستوعبوا ما يسمونه معارف العصر ، من تعاليم مسيحية لا يفهمون منها الا القليل ؛ ومن امثال ، كامثال لافونتين ، لا وضوح في معانيها ، ولا سمو في اخلاقها ؛ ومن مفردات مزعجة بلا جدوى ؛ ومن دروس تاريخية يجهلون منطقها ؛ ومن خلاصات علمية مزعومة يزدردونها كيفما اتفق الامر . الخلاصة ، يخرج المعهد والدير شباناً أشبه شيء بالبيغاوات ، لا هم لهم سوى ما يقول عنهم الناس .

ليس هكذا تكون التربية . ان الطبيعة البشرية حاضرة عند كل مولود ، سواء أكان ذكراً ام أنثى ؛ فالمطلوب من المربي ، قبل كل شيء ، ان يحافظ على هذه الطبيعة ، وان يتحاشى هدمها بواسطة الضغط الذي لا مبرر له . وان يساعدها على النمو والاكتمال .

يستطيع الولد ، لو ترك لذاته ، ان يتعلم كثيراً من اختباره الشخصي ، وبقدر ما تنجح محاولاته المتلصصة ، يتعلم استعمال اعضائه وعقله ، وتجنب الضرر ، والسعي

وراء المفيد ، والتمييز بين الافعال المشرفة ، والافعال  
الشائنة . بيد ان هذا النمو يكون بطيئاً ومحدوداً .  
هنا يستطيع المعلم التدخل لكي يضع تلميذه في افضل  
الشروط التي تتيح له الافادة من جسمه ، وعقله ،  
وقلبه . هنا يترقب على المعلم ان يلاحظ ، يفهم ، رداً  
فعل تلميذه الحسنة ، وان يجلبه الى الحكم على رداً  
فعله السيئة ، والى اصلاحها بنفسه . انها مهمة صعبة  
تنتظر المعلم وتفترض فيه البراعة ، والدقة ، واحياناً  
الدهاء . لا كتب حتى الآن : فالمطالعة تحفظ  
للمراهق ؛ ولا اوامر ، ايضاً ، تجعل الولد يفكر في  
المخالفة والكذب . ليتبع المعلم سير الطبيعة ، ويثق  
بها ، ويلاحظ رداً فعلها . هذا كل ما تتطلبه التربية  
الصحيحة ، وهذه هي كل السياسة التربوية التي يشير بها  
روسو :

ان الولد كائن جسدي تجب تربيته ، من هذه  
الناحية ، كما لو كان خارج المجتمع ، اي بطريقة  
طبيعية خالية من الحذقات الطبية . للولد ذراعان  
وساقان ، وحاجات غريزية الى الحركة ؛ لنترك له ،  
اذن ، ذراعيه وساقيه في حرية تامة . ولقد منحت

الطبيعة الام ثديين ولبناً ؛ فلتغذ طفلها ، اذن بلبنها ،  
وذلك لحيره وخيرها معاً . يتدرج الطفل من الحبو الى  
النهوض على رجليه ، الى المشي المتعثر ؛ لنتركه  
يتدرج ، طبيعياً من غير ان نستعجله ، او نستأخره .  
لنراقبه ، بالطبع ، ولنحرص عليه من الحوادث التي  
يتعرض لها ، ولكن لنقصر همنا على الحراسة المتحفزة ،  
والعين الساهرة ، ولنتركه يتدبر اموره بنفسه ما استطاع  
الى ذلك سبيلاً . لا بأس عليه ان تعثر ، احياناً ، وتألم ،  
وبكى ، فانه سيفيد من اغلاطه ويتجنبها شيئاً فشيئاً .  
يبكي الولد منذ ان يرى النور ، ثم لدى كل شيء  
يزعجه . لنتركه يبكي ان لم يكن ، ثمة ، سبب جدي  
لبكائه ؛ لاننا ، ان اسرعنا الى بمالقه وتدليله لدى  
كل صرخة ، فانه لا يلبث ان يصرخ ويعول لاي سبب ،  
ويصبح اجهل طاغية . . . يكبر الولد ، فلنجعله يفيد من  
الحياة الريفية حيث يستطيع الركض ، والقفز في  
الهواء الطلق ، مكشوف الرأس ، حافي القدمين .  
لنذهب به الى النزهة نهراً ولبلاً ، والى العود ،  
والسباحة ، وتسلق الأشجار . لا يصبح الولد رجلاً  
ان لم يكن في صباه عفريتاً . لنهتم ، ايضاً ، بالمعابه ،

ونشاركه فيها ، ونهيء له ظروفها وهذا مما يُيسر له كل  
السروز لولعه باللعب . بذلك نجعل الولد يكتسب جسماً  
سليماً ، مرناً ، صبوراً ، من غير ان نحتاج الى اية  
تمارين رياضية أخرى ، لاننا نكون قد هيأنا له ، في  
وقت قصير ، جميع الظروف التي كانت تنهياً له في  
حالته الطبيعية وتتيح له نمواً تلقائياً.

في التربية العلمية يجب اتباع نفس المنهاج : من  
الحق حشو دماغ الولد من غير نظام ، او جملة آلة  
لإعادة تلقينات اصطلاحية ، بينما المطلوب الجوهرى هو  
« تثقيف موهبة حكمه على الاشياء » ، واعداده لتمييز  
الهدف الواجب الوصول اليه ، وللتفكير في الوسائل التي  
تبلغه اياه ، واستعمال هذه الوسائل بنظام ومنهاج . « لا  
نستطيع ان نلقن الولد كيف يجب ان يفكر بتفكيرنا ،  
نحن ، عوضاً عنه » . يجب ألا نقول له شيئاً عما يستطيع  
ان يصل اليه بوسائله الخاصة ، بل ان نهيه له  
الظروف ، فحسب . ان الحرية التي نتركها له منذ  
حدثته تسهم كثيراً في تكوينه الذهني ؛ بهذه الحرية  
نجعله يفكر في الطرائق التي ينبغي له ان يتبعها ، فيقول :  
ان انا اتبع هذه الطريقة بلغت الى ما اطلبه ، أما

ان اتبعت تلك الطريقة ، فقد أخفقت . بيد ان الحكمة  
تقضي ، عند الحاجة الى الاسراع في سير التثقيف ،  
بعدم انتظار الظروف تأتي كيفما اتفق لها ، بل يجب  
على المثقف ، آنذاك ، ان يجهد في خلقها ، كأن  
يهيئ للولد مآزق حرجة ، ثم يتركه يتدبر امره في  
الخروج منها . يحسن تشجيع الولد على ان يضع بيده  
بعض الاشياء التي يحتاج اليها ، وان يتعلم مهنة يدوية  
تشحذ ذكائه وحذقه ، وان تُهيأ له الظروف التي تبين  
له اهمية تلك القواعد الحسابية ، والهندسية ،  
والميكانيكية ، التي لا يمكنه ، بدونها ، ان  
يتعاطى ، بنجاح ، مهناً كالعمارة ، والنجارة ،  
وصناعة الساعات ، الخ . . . ويحسن ، كذلك ، بالمعلم  
التربوي ان يغتنم فرصة النزاهات الحقلية لكي يشرح  
لتلميذه المشاكل الاساسية لتصنيف الانواع ، ولتكوين  
النباتات والحيوانات ، ولتكاثرها . بهذا المنهاج ، يبلغ  
الشاب سن الثامنة عشر من غير ان يكون قد تعلم الشيء  
الكثير ، ولكن موهبته الانتقادية ، والحكمية ، تكون  
قد بلغت أشدها . « انكم تلقنون تلميذكم العلوم ،  
وحسناً تصنعون ؛ ولكني ، اهتم ، انا ، بالاداة التي من

شأنها ان تستوعب هذه العلوم .

بيد ان نتائج هذا النوع من التربية تبدو افضل ما يكون من الناحية الاخلاقية . ليس الجسد والروح سوى أداتين تتوقف قيمتهما على قيمة قلب الشخص الذي يستخدمهما . ان تثقيف العاطفة هو ، اذن ، التثقيف الافضل . من المسلم به ان الولد يولد مؤهلاً ، من طبيعته البشرية ، للشفقة وللضمير الوجداني . غير ان الاولاد يجهاون المشاكل التي تعرض لهم ، والحلول التي تتطلبها . هنا ، ايضاً ، يجب ان 'تكشف لهم هذه المشاكل التي تعرض لهم ، والحلول التي تتطلبها . هنا ، ايضاً يجب ان تكشف لهم هذه المشاكل بدلاً من ان 'تحل لهم' مع الاتكال على ما «اودعته العناية الالهية أعماق قلوبهم ، ومع الاقتصار على ايقاظ جود الطبيعة فيهم . ليكن المؤدب متساهلاً وصارماً معاً ، وذلك بحسب ما تقتضيه الظروف ، فلا يمنع الولد شيئاً لا ضرر فيه لاحد ، ولكن ليحذر من النكوص عما رفضه له ، «غير متأثر لا بصراخه ، ولا بدموعه» . ليس على المربي ان يفرض على الولد أوامر مشددة لئلا يحمله على استعمال الحيلة والكذب لكي يبرر نفسه ان هو خالفها ، بل عليه ان يضع الولد

في حالة لا يستطيع معها ان يصنع الشيء غير المرغوب فيه ؛ وعليه ، كذلك ان يعرف كيف يحدد ، بكلمة منتقاة ، وضعا يستخلص منه المغزى الذي يتضمنه ، من درن ما لجوء الى المواعظ المستطيلة . ومثلا على ذلك : يشهد الولد شخصا يحتم غيظا فيسب ، ويشتم ، ويلعن ، فيقول المؤدب عنه ، امام تلميذه : « ياله من مسكين ، انه مريض ! » ؛ ان هذه الكلمات البسيطة تكفي لموعظته ان احسن المؤدب قولها باللهجة المطلوبة . بيد ان روسو يريد احسن : يهيء المربي المتنبه ظروفًا حقيقية وترتيبات موقوتة لاجل خلق عواطف معينة في نفس الولد . ايُّ منا لا يذكر الطريقة التي جعل روسو بها تلميذه اميل ، بالاتفاق مع البستاني الشيخ ، يشعر بمشكلة الملكية ، وبحق كل واحد في ثمار عمله ، وبالظلم الصارخ في النظام الاجتماعي تجاه المحرومين ؟ ومن لا يذكر السياسة الرشيدة التي هيا بها روسو تلميذه « اميل » لحب صوفيا قبل ان يعرفها لكي يحمي من اخطار المراهقة ، ويقوده الى قريها ، كما بالمصادفة ، فُشِغف بحبها ؟ وبما ان روسو يعلم ان الانسان لا يتعلم عمل الخير بقراءة الكتب بل بمارسته بالفعل ، لذلك يريد ان يوضع اميل باتصال مع فاقة المعوزين واوجاع المبتلين . ويريد روسو ،

ايضاً ، ان يتردد اميل الى تلك الاوساط التي يعيش  
الناس فيها عيشة بسيطة شريفة ، قنوعة . أخيراً ،  
ولكي يعدّه لاختيار الدين « الذي يجب ان يقوده اليه  
عقله السليم » ، وبعد ان رفض انتسابه الى اية كنيسة ،  
جعله يلاقي ، في سن الثامنة عشرة ، « النائب الاسقفي  
الساوري » .

الخلاصة : لا قسر ، ولا ضغط ، ولا فرض او امر على الولد ،  
بل وضع الثقة في غرائزه الطبيعية لكي تنمو في نفسه  
الاتجاهات السليمة ، والافكار السليمة ، والعواطف  
السليمة . « اذكر ، دائماً ، انك كاهن الطبيعة » . ان  
هذه الجملة تلخص كل منهاج روسو التربوي . ومن الطبيعي  
أنّ على المربي أن ينتبه الى سن وجنس من يربيه ،  
« فيعامل الولد ، في سن البلوغ ، بعكس ما كان  
يعامله وهو صبي » . اما الفتاة ، فعليه ان ينمي في نفسها  
حاسة الكرامة الشخصية وهذه العذوبة الضرورية  
لتحقيق المصير الذي اعدته لها الطبيعة كأنثى .

٤ - لو اردنا ان نحكم على كل فلسفة بالنسبة الى  
صحة آرائها ، وقوة براهينها ، لوجدنا فلسفة روسو  
جداً ناقصة . فاية حقيقة ، او صحة ، يتضمن وصفه

لرجل الطبيعة ؟ هل يوجد ، حقاً ، بين استعدادات الانسان الاولى هذا الاستعداد للشفقة ، وهذا الوجدان الاخلاقي اللذين ينسبهما روسو اليه ؟ أصبح ان الوجدان الاخلاقي واحد في جميع الأزمنة والأمكنة ؟ أصبح أنه مصدر رضى عن النفس ووخز ضمير يجعلان من لا يآبه لهما شقياً ؟ هل تبرر براهين روسو تبريراً كافياً العناية الالهية من الشر الذي يجعلونها مسؤلة عنه ؟ أصبح ان الانسان يملك ارادة حرة ينكرها عليه فلاسفة كبار ، وان النفس تظل حية بعد موت الجسد مع جميع ذكرياتها ؛ وماذا نقول عن نظام روسو السياسي الذي يطلب من الناس الاكثر فهماً ، وجدارة واستقامة ، ان يضعوا مصيرهم كاملاً بين ايدي اكثرية جاهلة وغير مثقفة ؟ وماذا نقول ، ايضاً ، عن منهاجه التربوي الذي لا يبلغ اهدافه الا بواسطة سلسلة من الحيل ، والخدع ؟

ولكننا ، لو اردنا ان نحكم على فلسفة روسو بالنسبة الى النفوذ الذي احرزته ، لبدلنا حكمنا عليها . ان ( كارليل Carlyle ) ، في كتابه «الابطال» ، يصور لنا روسو كالمسبب الاسامي للثورة الفرنسية . انها

لمبالغة غريبة ، لان ما يثير شعباً ليس كتاباً لا يقرأه ، او لا يفهمه هذا الشعب بل ، بالاحرى ، اوضاع حياته الاقتصادية . بيد ان ، ثمة ، شيئاً جد صحيح ، وهو أن الثوار ، بعد استيلائهم على الباستيل ، اضحى مهمهم الوحيد بناء ما كانوا قد هدموه ، فالتفت اكثرهم ثقافة حول روسو بصفته استاذاً لا يجارى . ان نظريات « العقد الاجتماعي » هي التي اصبحت مصدر موضوعات « بيان حقوق الانسان والمواطن » ، ولأن روسو اراد ان يكون للشعب ديناً ، لذلك حاولوا ان يقيموا دين العقل الاله الذي كان روبسبير ، مدة من الزمن ، حبره الاعظم . ثم ان نحن بحثنا عن اصل الاندفاعات المتفائلة ، والخطب المبلة بالدموع ، والنفخات العاطفية ، التي كان يتميز بها اعضاء الهيئة التأسيسية ، واءضاء الهيئة الاصلاحية ، لوجدناه في كتب روسو : « اميل » ، و« هيلوييز الجديدة » ، و« تأملات متزه معتزل » .

نستخلص من فلسفة روسو هذه الحقيقة المدهشة :

ليس عمق العقيدة الفلسفية « ولا صحتها ، هما  
الذين يؤمنان نفوذها في العالم بل ، بالاحرى ، اللحظة  
التاريخية التي تظهر فيها ، وملاءمتها لحاجات ، واوهام ،  
وأهواء عصر معين .

**اندرية كويسون**

## آثار روسو الادبية

ان لروسو آثاراً ادبية ضخمة ؛ وقد ذكرنا معظمها في سيرة حياته المقتضبة التي صدرنا بها هذا الكتاب ، وها نحن نعرض جدولاً بها بحسب تواريخها ، مع بعض ايضاحات عن طبعاتها . وقد اهلنا ، بقصد ، جميع مسرحياته وقطعه الموسيقية التي يجدها القارىء في طبعات آثاره الكاملة ، او في مجموعات خاصة .

سنة ١٧٥٠ خطاب في العلوم والفنون ؛

سنة ١٧٥٤ خطاب في عدم المساواة ، نشره مارك

ميشال راي ، امستردام سنة ١٧٥٥ ؛

- سنة ١٧٥٦ رسالة في العناية الالهية ؛
- سنة ١٧٥٨ رسالة في التمثيل المسرحي ، نشرها  
راي ، امستردام ؛
- سنة ١٧٥٩ هيلوييز الجديدة ، اربعة اجزاء ، باريس ؛
- سنة ١٧٦٢ العقد الاجتماعي ، نشره راي في شهر  
نيسان ، امستردام ؛
- اميل ، نشره دوشين في شهر ايار ؛ في  
باريس ، وجان نولم ، في امستردام ؛
- سنة ١٧٦٣ رسالة الى كريستوف دي بومونت ،  
نشرها راي ، امستردام ؛
- سنة ١٧٦٤ وسائل من الجبل ، نشرها راي ،  
امستردام ؛
- سنة ١٧٦٥ رسالة الى مسيو بوتافيو كو في تشريع  
كورسكا ؛
- سنة ١٧٦٨ قاموس موسيقي ؛
- سنة ١٧٧٢ ملاحظات على حكومة بولونيا ؛
- سنة ١٧٨٢ ( تاريخ النشر ) ، « اعترافات »  
(الاجزاء الستة الاولى ) ؛  
تأملات منزلة معتزل ؛

سنة ١٧٩٠ ( تاريخ النشر ) ، «اعترافات» (الاجزاء  
السته الاخيرة ) ؛  
محاورات ؛

سنة ١٨٠٥ ( تاريخ النشر ) وسائل في النباتات ؛  
سنة ١٩٢٤ - ١٩٣٧ ( تاريخ النشر ) مراسلات  
عامه ، نشرها ت . دوفور ،  
وب . ب . بلان ، في عشرين  
جزء ، على مطابع أ . كولان ،  
باريس .

طُبعت آثار روسو الادبية كاملة عدة طبعات .  
نشر طبعة منها دي بيرو ، صديق روسو ، في جنيف .  
( ١٧٨٢ - ١٧٩٠ ) ؛ ثم موسه باقي ، طبعة في ثلاثة  
وعشرين جزءاً ، باريس ، ( ١٨١٨ - ١٨٢٠ ) ؛ ثم  
بليتتان ، اثنان وعشرون جزءاً ، باريس ( ١٨١٩ - ١٨٢٢ ) .  
وفي سنة ١٨٥٨ ، نشر ر . دي لا تور طبعة منها في  
باريس . وقد نشر ستريكيزن مولتو ، في باريس ، سنة  
١٨٦١ آثار مراسلات روسو غير المنشورة قبلاً .

## منتخبات

### موضوع الجزء الاول

وُلد الانسان (١) حراً، ولكننا نجده ، حيث كان، في القيود . قد يظن احد الناس انه سيد الآخرين بينما هو ، في الحقيقة ، عبد اكثر منهم . كيف حصل هذا التغير ؟ لا اعلم . ما الذي يجعله شرعياً ؟ اظن اني استطيع ان أجيب على هذا السؤال الاخير .

لو كنت لا اعتبر الا القوة ونتائجها ، لقلت :  
« طالما كان شعب من الشعوب مرغماً على الطاعة فأطاع ،

---

(١) هذا المقطع ، والمقاطع التي تلي ، نقلت عن «المقد الاجتماعي».

فحسناً صنع ؛ ولكن ، حالما يستطيع ان يخلع عنه نير  
الطاعة ، فيخلعه ، فأفضل يصنع ؛ لانه ، حينما يستعيد  
حرية بنفس الحق الذي سلبت به منه ، اي بالقوة ،  
فاما له الحق باستعادتها ، واما لم يكن لسالبها حق  
بسلبها . بيد ان النظام الاجتماعي هو حق مقدس  
وأساس لجميع الحقوق الاخرى . مع ذلك لا يأتي هذا  
الحق من الطبيعة ، بل هو مبني على اصطلاحات  
واتفاقات . فما هي هذه الاصطلاحات وهذه  
الاتفاقات ؟

### في حق الاقوى

ان الاقوى لن يكون له ابدأ القوة الكافية لكي يظل  
سائداً ، إلا اذا حول قوته الى حق ، وطاعة من يطيعه  
الى واجب . من هنا يترتب حق الاقوى : وهو حق  
يُسخر منه في الظاهر ، بينما هو ، في الحقيقة ، متخذ  
كمبدأ . ولكن ، ألا يستطيعون ان يشرحوا لنا هذه  
الكلمة « الحق » ؟ ان القوة هي قدرة مادية ولا ارى اية  
اخلاقية يمكننا ان نستخلص من نتائجها . فالرضوخ  
للقوة فعل اجباري لا اختياري ، أو هو ، على الاكثر ،  
فعل حكمة وحذر ، فكيف يمكنه ان يكون

واجباً ؟

لنسلم ، افتراضاً ، بهذا الحق المزعوم ؛ ولكنني أجب بأن هذا الافتراض لا ينتج عنه سوى الاختلاط والتشويش ، لأنه حينما تكون القوة مصدر الحق تتبدل النتيجة مع تبدل السبب : فالقوة التي تتغلب على القوة السائدة تكتسب حقها ايضاً ؛ وبما ان الحق يكون دائماً ، للاقوى ، يصبح على كل من يريد ان يكون الحق له ان يكون الاقوى . ما هو ، اذن ، هذا الحق الذي يبطل حينما تزول القوة التي كانت مصدره ؟ فان كان من الضروري اطاعة القوة من حيث هي القوة ، فاية حاجة تبقى الى إطاعتها من قبل الواجب ؟ ألا نرى ان هذه الكلمة « الحق » لا تضيف شيئاً الى القوة ، وانها لا تعني شيئاً هنا ؟

أطيعوا السلطات . ان كان هذا القول يعني : اخضعوا للقوة ، فالقاعدة جيدة ، ولكنها زائدة : وأجب ، ايضاً ، بأنها لن تلقى ، ابداً ، مخالفة . ان كل سلطة تأتي من الله ، وانا أقر بذلك ؛ ولكن كل مرض يأتي ، ايضاً ، بسماحه : فهل يعني ذلك ان استدعاء الطبيب ممنوع ؟ لنفترض ان شقياً فاجأني في احدى الغابات :

لا شك في ان الحكمة تضطرني الى ان اتخلى له عن دراهمي ؛ ولكن ، ان كنت قادراً على الاحتفاظ بها ، فهل يلزمني ضميري بالتخلي عنها ؟ فالبنقدية التي في يد الشقي هي مع ذلك ، قوة .

لنسلم ، اذن ، بان القوة ليست مصدر الحق ، وباننا لسنا ملزمين بان نطيع سوى السلطات الشرعية . ولكن ، كيف تكون السلطة شرعية ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه .

### في العبودية

بما انه ليس لأي انسان سلطة طبيعية على ابن جنسه وبما ان القوة لا تحول اي حق ، لذلك لا يبقى سوى الاتفاق اساساً لكل سلطة شرعية بين الناس .

قال ( غروسيوس Grotius ) ما مفاده : « ان كان الفرد يستطيع ان يتنازل عن حريته ، وان يجعل نفسه عبداً لسيد ، فلماذا لا يستطيع شعب بكامله ان يتنازل عن حريته وان يجعل نفسه رعية الملك ؟ » . يوجد في هذه العبارة بعض كلمات تفتقر الى شرح وتوضيح ، ولكننا نقتصر ، هنا ، على شرح كلمة « تنازل » . تنازل يعني أعطى ، او باع . والجال ، ان الانسان الذي يجعل نفسه عبداً لغيره لا يعطي نفسه بل يبيعها لكي يعيش على الاقل ؛ ولكن ،

لماذا يبيع شعب بكامله نفسه للملك ؟ ان الملك لا يهب  
افراد رعيته ما يعيشون منه بل ، بالعكس ، هو  
الذي يعيش مما يأخذ منهم ؛ والمملك ، كما قال  
راهليه ، لا يعيش من شيء قليل . يبيع افراد الرعية ،  
اذن ، انفسهم وما يملكونه فماذا يبقى لهم ؟

قد يقول قائل ان الحاكم المستبد يؤمن لرعيته  
الراحة المدنية . لنفترض ذلك ؛ ولكن ، ماذا تربح  
رعيته ان كانت الحروب التي تجلبها عليهم مطامعه ،  
وان كان جشعه ، والجور الذي تسير به حكومته ، ان  
كان كل ذلك يرهق الرعية اكثر مما ترهقها منازعاتها ؟  
ماذا تربح هذه الرعية ان كانت الراحة التي يمتنون عليها  
بها هي احدى بلاياه ؟ ان السجين يعيش مرتاحاً في  
سجنه ، فهل نعتبر هذه الراحة خيراً له ؟

أن يعطي الانسان نفسه لغيره مجاناً ، هذا ما لا  
يستطيع العقل ان يتصوره ؛ ان مثل هذا  
الفعل هو غير شرعي وباطل ، لمجرد ان فاعله يُعتبر  
غير عاقل . واذا افترضنا ان شعباً بكامله فعل ذلك ،  
وجب علينا ان نفترض ان هذا الشعب هو شعب مجانين ؛  
والجنون لا يخلق حقاً .

لو سلمنا بان لكل فرد الحق بان يتنازل عن حريته ،  
فاننا لا نستطيع ان نسلم بان له الحق في ان يتنازل عن  
حرية ابنائه : انهم يولدون بشراً احراراً . ولكن ، قبل  
ان يبلغوا سن التمييز ، يحق للاب ان يتعاقد باسمهم لاجل  
حفظهم وخيرهم ؛ غير انه لا يحق له ان يبيعهم نهائياً بلا  
قيد ولا شرط ، لان ذلك مضاد لغاية مصيرهم الطبيعي ،  
وخارج عن حقوق الابوة . ينبغي ، اذن ، لكل  
حكومة مطلقة ، لكي تظل حكومة شرعية ، ان يُترك  
لكل جيل الحق بان يرضى بها او يرفضها .

ان تنازل الانسان عن حريته هو تنازل عن صفته  
كإنسان ، وعن حقوق انسانية ، حتى وعن واجباتها .  
ان مثل هذا التنازل لا يتفق مع طبيعة الانسان لانه  
يحرم اعماله من كل اخلاقية ، ويحرم ارادته من كل  
حرية . اخيراً ، ان اتفاقاً ، يشترط ، من جهة ، سلطة  
مطلقة ، ومن جهة ثانية ، خضوعاً مطلقاً ، لهو اتفاق  
متناقض وباطل . أليس من الواضح اننا لا نلتزم شيئاً  
لمن يحق لنا ان نفرض عليه كل شيء ؟ ثم اليس هذا  
العقد باطلاً من طبيعته ؟

## في وجوب الرجوع ، دائماً ، الى اتفاق اولي

يوجد فرق كبير بين اخضاع جماعة ، وادارة مجتمع .  
حينما يصير اخضاع أناس متفرقين ، مهما كان عددهم ،  
اخضاعاً متتابعاً لشخص واحد ، لا يكون هناك سوى  
سيد وعبيد ، لا شعب ورئيسه ؛ ولا يكون هناك مصلحة  
عمومية ، ولا هيئة سياسية . ولو اخضع هذا السيد  
نفس العالم على هذا الوجه يظل فرداً من الافراد ، وتظل  
مصلحته ، وهي منفصلة عن مصلحة الآخرين ، مصلحة  
خاصة .

قال غروسيوس : «يستطيع اي شعب ان يسلم قيادته  
الى ملك » . وقوله شعب يعني انه كان شعباً قبل ان  
يسلم قيادته الى ملك ، ويفترض مناقشة عمومية وقراراً  
عمومياً . فقبل ان نبحث في القرار الذي انتخب به هذا  
الشعب ملكاً له ، يجدر بنا ان نبحث في القرار الذي  
اصبح به هذا الشعب شعباً لان هذا القرار هو الاسبق  
وهو اساس المجتمع .

لم يكن بد من وجود اتفاق سابق بين افراد هذا  
الشعب تخضع بموجبه الاقلية لقرار الاكثرية . بيد ان  
هذا الاتفاق الاول كان لا بد له من ان يكون قد

اتخذ بالاجماع .

### في الميثاق الاجتماعي

أفترض ، الآن ، بلوغ أناس الطبيعة ، يوماً من الأيام ، الى حالة جديدة تحول الصعوبات فيها دون إمكان البقاء في حالة الطبيعة ؛

وبما ان الناس لا يستطيعون خلق قوى جديدة ، بل ضم وتوجيه القوى التي يملكونها لكي يذللوا العقبات التي تعترض معيشتهم ، فقد تجمعوا واتحدوا اضطراراً . ولكن ، كيف يتنازل الانسان عن قدرته وحريته ، وما أداتا بقائه ، من غير ان يهمل الاعتناء بنفسه ؟ اني اضع هذه المشكلة في الصيغة التالية :

« إيجاد شكل شراكة يحمي ، بجميع القوى المشتركة ، شخصاً ومقتنى كل عضو ؛ وبما ان كل عضو ينضم ، في هذه الشراكة ، الى جميع الاعضاء حتى يصبح الجميع 'كلاً' واحداً ، لذلك هو لا يخضع إلا لارادته ، ويظل حراً كما في السابق » . هذه المشكلة الاساسية التي يحاول العقد الاجتماعي حلها .

ان شروط هذا العقد تحددها طبيعة الصك تحديداً بحيث ان اقل تبديل يطرأ عليها يجعلها باطلة وعديمة

الفاعلية: تكون، اذن ، هذه الشروط ، ضمناً ، واحدة  
في كل مكان، ومسلماً بها من الجميع، حتى ولو لم يكن قد  
نص عليها من قبل الى ان يُنقَضَ العقد، حينئذٍ يسترجع  
كل فرد حقوقه وحرية الطبيعية .

تتلخص هذه الشروط ، طبعاً ، بشرط واحد ،  
وهو : تنازل كل شخص ، مع جميع حقوقه، تنازلاً  
تاماً ، لكل الهيئة الاجتماعية ، وبذلك تكون جميع  
الامور متساوية بين افراد هذه الهيئة .

• • •

ان نحن حذفنا من العقد الاجتماعي ما ليس جوهرياً  
فيه وجدناه يتلخص في ما يلي : « كل فرد من افراد  
المجتمع الواحد يضع شخصه وجميع قواه تحت تصرف  
الارادة العامة العليا ويكون جزءاً لا يتجزأ من  
المجموع الواحد » .

هكذا يؤلف الافراد هيئة معنوية وجماعية من  
اصوات متساوية ، فتأخذ هذه الهيئة من قرار افرادها  
وحدتها ، وحياتها ، وارادتها ، واسمها ، سواء أكان  
هذا الاسم مملكة ، ام جمهورية ، ام اتحاد جمهوري ،  
ام غير ذلك .

## في القانون

ان ما هو صالح ومطابق لروح النظام لا يكون كذلك الا بطبيعة الاشياء ذاتها ، وباستقلاله عن الاصطلاحات البشرية . كل عدالة تأتي من الله ، فهو وحده مصدرها ؛ ولكن ، لو كنا نعرف ان نقبلها من هذا المقام السامي كما يجب ، لما كنا في حاجة الى حكومة وقوانين . لا شك في وجود عدالة شاملة تصدر عن العقل وحده ، ولكن هذه العدالة ، لكي نسلم بها ، يجب ان تكون متبادلة . ثم ، ان نحن نظرنا الى الاشياء من الناحية البشرية وجدنا ان قوانين العدالة الطبيعية تظل لاغية بين البشر لعدم وجود عقوبات طبيعية تثبتها ، فينعم بها الاشرار الذين لا يحترمونها ، ويشقى بها الاخيار الذين يحترمونها . لذلك يجب اللجوء الى اتفاقات وقوانين ، بين البشر ، تضم الحقوق المحددة الى الواجبات المحددة لكي تصل بالعدالة الى غايتها .

ولكن ، ما هو القانون ؟ لا يكون القانون قانوناً حقيقياً الا حينما تكون غايته المصلحة العمومية ، لا مصلحة فرد ، او افراد ، مهما بلغ عددهم . فحينما

يصدر كل الشعب قانوناً لكل الشعب ، بلا استثناء ،  
حينئذ يكون القانون عاماً كالارادة التي اصدرته . هذا  
ما اسميه قانوناً .

...

أطلق اسم جمهورية على كل دولة تسودها القوانين  
مهما كان شكل ادارة هذه الدولة: لأن المصلحة العمومية  
هي التي تحكم ، وحدها ، آنذاك ، تلك الدولة . ان  
كل دولة شرعية تدعى جمهورية ، لان الارادة العامة  
هي التي تحكمها ؛ والارادة العامة هي القانون الشرعي .

في المشترع

لاجل اكتشاف افضل القواعد الاجتماعية التي تلائم  
الامم ، يلزم عقل سام يفهم جميع اهواء البشر  
وشهواتهم ، من غير ان يكون له ، هو ، مثل الاهواء  
والشهوات ، ومن غير ان يكون له ارتباط بطبيعتنا  
بيننا هو يدرك اعماقها ، ومن غير ان تحتاج سعادته  
الينا ، ومع ذلك يهتم بنا . يلزم آلهة لكي يسنؤوا  
شرائع للبشر .

...

ان الذي يريد ان يصنع شعباً يجب ان يكون

بإمكانه أن يغير الطبيعة البشرية ، وأن يحسّل كل فرد من حالة الوحدة والانفصال إلى حالة جزء من كل قوى يستمد منه هذا الفرد حياته وكيانه الاجتماعي ؛ وأن يكون بإمكانه أن يحل تركيب وضع الفرد الأولي لكي يعيده أكثر قوةً ؛ وبالاختصار ، يجب عليه أن يضم قوى الفرد إلى قوى الجماعة لكي يجعل من هذه القوى كلاً متضامناً أكمل وأقوى بقدر انصهار الأفراد المتفرقين في المجموع الواحد .

### في الشعب

كما أن الباني يبحث ، قبل أن يقيم البناء ، عن متانة الأرض التي يريد أن يبني عليها لكي يرى هل تستطيع أن تحمل البناء الذي صممه ، هكذا يجب على المشرع الحكيم ، قبل أن يضع شرائع صالحة بحد ذاتها ، أن يبحث عن قابلية الشعب لتلك الشرائع بعينها التي يشترعها له .

...

الوف الامم لمعت على الأرض من غير أن تستطيع احتمال شرائع جيدة ؛ والامم التي استطاعت ذلك لم تستطع الا مدة قصيرة من تاريخها الطويل . ان معظم

الشعوب ، وهي في ذلك كمعظم الناس ، لا ليونة عندها الا في عهد شبابها ، ولكنها تصبح غير قابلة للإصلاح حينما تشيخ . فيوم تترسخ عاداتها ، وتصلب آراؤها ، يصبح من العبث ان تحاول اصلاحها . فالشعب لا يريد ان 'تمس ادواؤه وتعالج' ، وهو أشبه في ذلك بهؤلاء المرضى الجاهل ، الجبناء ، الذين يرتاعون من رؤية الطبيب . ولكن ، كما ان بعض الامراض تهيج ، في بعض الاحيان ، رؤوس المرضى ، كذلك يمر ، أحيانا ، في تاريخ الدول ، عهود هيجان حيث تفعل الثورة بالشعب ما يفعله البحران بعقل المريض ، وحيث الدولة ، بعد ان تشتعل في داخلها نيران الحروب الاهلية ، تنبعث من رمادها ، وتستعيد نشاط شبابها وهي خارجة من بين ذراعي الموت . هكذا حدث لمدينة سبرطة في عهد مشترعها ليكورغ ؛ وهكذا حدث لروما بعد ملوكها ( التركين ( Tarquins ) ؛ وهكذا حدث لهولندا ولسويسرا بعد طرد الطغاة .

غير ان هذه الاحداث نادرة الوقوع ؛ انها شواذات تتصل جذورها بدستور الدولة نفسه ، ولكنها قد لا تقع مرتين لذات الشعب ، لان الشعب يستطيع ان

يتحرر وهو لا يزال في طور التكوين ، ولكنه لا يستطيع ذلك بعد بلوغه سن الشيخوخة ؛ حينئذ يمكن للاضطرابات ان تهدمه من غير ان تستطيع الثورات النهوض به ، لانه حينما تتكسر قيوده يقع ، آنذاك ، متفتتا ؛ وحينئذ يصبح في حاجة الى سيد ، لا الى محرر . ايتها الشعوب ، اذكري دائماً انك «تستطيعين ان تمتلكي الحرية ، ولكنك لا تستطيعين بعثها» .

### في انواع التشريع المختلفة

لو اردنا ان نعرف بماذا يقوم ، بالضبط ، اكبر حيز ممكن للجميع ، وهو الحيز الذي يتوخاه كل نوع من التشريع ، لوجدناه ينحصر في موضوعين رئيسيين : الحرية ، والمساواة ؛ الحرية ، لان كل تبعية خاصة هي قوة تفقدها الدولة ؛ والمساواة ، لأن الحرية لا تثبت خارجاً عنها .

لقد قلت ، سابقاً ، ما هي الحرية المدنية ؛ اما في ما يتعلق بالمساواة ، فلا يجب ان نفهم بهذه الكلمة ان درجات القدرة والغنى تكون متساوية مساواة مطلقة ؛ بل ان تكون القدرة خالية من العنف ، وألا 'تتأثر' إلا بحسب الدرجة وبموجب القوانين ؛ وألا

يخول الغنى صاحبه القدرة على شراء الآخرين وألا  
يخوج الفقر صاحبه الى بيع نفسه من الآخرين : ليخفف  
القوي من غلوائه ، والغني من جشعه ، والضعيف من  
حقده ، والفقير من حسده .

قد يقول قائل ان هذه المساواة التي تقول بها لا توجد  
الا في الخيال . لو فرضنا ان ذلك صحيح ، وان  
الافراط لا بد منه ؛ ألا يجب ، لذلك ، ان نضع حداً  
لهذا الافراط ؟ بالعكس : بما ان طبيعة الاشياء تجنح الى  
هدم المساواة ، لذلك يجب ان يجهد التشريع في  
الحفاظ عليها .

### في الحكومة اجمالاً

ألفت انتباه القارئ الى وجوب قراءة هذا الفصل  
بروية ، والى اني لا املك مهوبة الوضوح إزاء من  
لا يريد ان يتأمل .

لكل فعل حر سببان ؛ الاول اخلاقي ، وهو الارادة  
التي تقرر الفعل ، والثاني مادي ، وهو القوة التي تنفذه .  
حينما امشي باتجاه شيء ما يلزمني ، أولاً ، ان اريد ان  
امشي باتجاه هذا الشيء ، وثانياً ، ان تستطيع رجلاي  
ان تحملني . أن يريد الكسيح ان يمشي ، وأن لا يريد

النشيط ذلك ، فكلاهما يظلان مكانها ؛ والهيئة السياسية ذات الاسباب : الارادة والمقدرة : الاولى تُدعى « السلطة التشريعية » والثانية تدعى « السلطة التنفيذية » .

قلنا ان السلطة التشريعية لا تكون الا من حق الشعب ، ومن حق الشعب وحده ؛ اما السلطة التنفيذية ، فما ان مهمتها وأعمالها لا تشمل العموم كالشرائع ، يجب ان تُتناط بهيئة خاصة تضم القوة العامة وتمارسها بحسب توجيه الارادة العامة . هذا هو سبب وجوب الحكومة في الدولة ، وسبب تمييز السلطة التشريعية من السلطة التنفيذية .

ما هي ، اذن ، الحكومة ؟ انها هيئة وسيطة بين المواطنين وبين الهيئة التشريعية ، وقوة معهود اليها في تنفيذ القانون وحماية الحرية المدنية والسياسية .

### في الديمقراطية

لا يحسن ان يُنفذ القوانين مصدرُها ، ولا أن يحيد اقتباه الشعب عن الشؤون العمومية الى الشؤون الخاصة . لا شيء أشد خطراً من تأثير المصالح الخاصة بالمصالح العمومية . ان سوء استعمال الحكومة للقوانين

يظل أخف وطأة من فساد الاشتراة من جراء سيطرة  
وجهات النظر الخاصة التي تززع اساس الدولة وتجعل  
كل اصلاح مستحيلاً .

لم يوجد في التاريخ ديموقراطية تامة بكل معنى  
الكلمة ، ولن يكون . ليس من الطبيعي ان تتحكم  
الاکثرية بالاقلية ، ولا يمكن للشعب ان يتفرغ ، بصورة  
متواصلة ، لكي يعالج مشاكله العمومية .

الحكومة الفضلى يجب ان تجمع الصفات التالية :  
اولاً ، دولة جد صغيرة حيث يسهل اجتماع الشعب  
وحيث يستطيع كل مواطن ان يعرف مواطنيه ؛ ثانياً ،  
بساطة كلية في العادات والتقاليد تحول دون تراكم  
الاشغال وحدة المناقشات ؛ ثالثاً ، اكبر مساواة ممكنة  
بين المقامات والثروات ؛ رابعاً ، عدم البذخ ، لأن  
البذخ إما ان يكون نتيجة لتضخم الثروات ، وإما ان  
يكون دافعاً الى البحث عنها ؛ انه يفسد الغني والفقير  
معاً : الاول بالجشع ، والثاني بالحسد ، ويغري المواطنين  
بالكسل والفسخفة ، وبالتسلط بعضهم على بعض .

لذلك نرى كاتباً اجتماعياً كبيراً قد وضع الفضيلة  
كبدأ اساسي للحكومة الجمهورية ، لأن جميع هذه الصفات

لا يمكنها ان تثبت خارجاً عن الفضيحة . ثم ان الحكومة  
الديموقراطية ، او الشعبية ، هي اكثر الحكومات عرضة  
للحروب الاهلية وللاضطرابات الداخلية لانها تنزع  
دائماً نزوعاً قوياً الى تغيير شكلها وتتطلب جهوداً كبيرة  
لكي تستطيع ان تثبت طويلاً في شكل واحد .  
لو كان يوجد شعب مؤلف من آلهة لاختار الحكم  
الديموقراطي ؛ اما البشر ، فلا يلائهم هذا والحكم  
لسبب كاله .

في ان وضع كل بلد يتطلب  
شكل حكومة خاص به

بما ان الحرية لا تثبت في جميع المناخات ، لذلك لا  
يستطيع كل بلد ان يحصل عليها . بقدر ما تتأمل في  
هذا المبدأ الذي وضعه مونتسكيو ، بقدر ذلك نشعر  
بحقيقته .

في جميع حكومات العالم ، يستهلك موظفو الدولة  
من غير ان ينتجوا . من اين تأتيا ، اذن ، مواد  
الاستهلاك ؟ من عمل شعبها حيث الفائض عن الافراد  
يعطي الدولة ما تحتاج اليه . والحال ، ان هذا الفائض  
يختلف من بلد الى آخر ، فيكون وفراً في بعض البلدان ،  
وقليلاً في البعض الآخر ، او معدوماً ، او سلبياً ،

وذلك بالنسبة الى خصب تربة كل بلد ، والى نوع العمل الذي تتطلبه ، والى نوع ما تنتجه ، والى حذق سكان هذا البلد ، والى مقدار ما يستهلكونه ، الخ . . .

ثم ان أشكال الحكومات يختلف بعضها عن بعض : فمنها ما يتطلب نفقات باهظة ومنها ما يكفي بنفقات معتدلة . ليس المهم في اقتصاد البلاد مقدار الضرائب التي تفرضها الحكومة ، بل نوع استعمالها ؛ فبقدر ما تستخدم احتياجات البلد تزيد في ثروته ، وبقدر ما تستخدم مصالح الافراد تفقره . في النظام الديموقراطي ، تكون الضرائب خفيفة على كاهل الشعب ؛ وفي النظام الارستقراطي ، اكثر ثقلًا ؛ وفي النظام الملكي ، باهظة . فالنظام الملكي لا يلائم الا الامم الغنية ؛ والنظام الارستقراطي يلائم الدول المعتدلة الثروة والمساحة ؛ والنظام الديموقراطي يلائم الدول الصغيرة والفقيرة .

في ان الارادة العامة هي اساس الحكم

طالما اعتبر جمهور من الاشخاص نفسه هيئة واحدة ، لا يبقى له في غايته المشتركة سوى ارادة واحدة ، وهذه الغاية تتعلق بالبقاء المشترك والرخاء العام ؛ حينئذ يكون عصب الدولة قويا ، وخطتها واضحة ،

بعيدة عن كل غموض وتناقض : فالسلام ، والأمن ،  
والاتحاد ، والمساواة ، جميعها اشياء تتنافى والحذقات  
السياسية ؛ والناس المستقيمون ، البسطاء ، يصعب على  
الخادع ان يخدعهم ، وذلك لبساطة مقاصدهم ووضوحها .  
حينما ترى عند اسعد شعب في العالم فئات من القرويين  
يديررون شؤون الدولة تحت السديانة بحكمة ورسانة ،  
هل تستطيع ، آنذاك ، ألا تحقر تحذلق الشعوب  
الآخري التي تشهر وتشقى في آن واحد بفنونها واسرارها ؟  
لا يحتاج ذلك الشعب السعيد الا الى القليل من  
القوانين التي تتضح له بكامله حالما تمس الحاجة اليها ،  
فيصدرها في الوقت المناسب بكل سهولة من غير عنف  
مجادلات ، ولا فصاحة خطابات .

. . .

ولكن ، حينما يبدأ الرباط الاجتماعي يرتخي ،  
والدولة تضعف ، والمصالح الخاصة تستفحل ، والكتل  
الصغيرة تزداد نفوذاً ، حينئذ يتضعضع الصالح العام  
ويلقى معارضين ، وتتجزأ الارادة التي كانت الارادة  
العامه ، وتكثر المجادلات والمشاحنات ، ويزداد التناقض .  
اخيراً ، حينما تقرب الدولة من الانهيار ، وينقطع

الرباط الاجتماعي في جميع القلوب ، و تقتعل المصالح الخاصة ، بوقاحة ، صفة الصالح العام المقدس ، حينئذ تصمت الارادة العامة ، وينقاد الجميع وراء اهداف مسترة ، ويصبحون مواطنين زائفين لا وطن لهم الا بالاسم ؛ حينئذ تصدر القوانين الجائرة التي تخدم مصالح الافراد وتضرب بالمصلحة العامة عرض الحائط .

### في الدكتاتورية

ان تصلب القوانين الذي يمنعها من مجارة الاحداث يستطيع ، احياناً ، ان يجعل هذه القوانين ضارة وخطرة على مصير الدولة . لا يُتاح لاي مشرع ان يحتاط لجميع الاحوال الكامنة في ضمير الغيب ، لذلك ينبغي له ان يضع في الشرائع التي يسنها مرونة كافية لتدارك الظروف المفاجئة .

اما الاخطار التي تطرأ على الدولة مهددة كيانها ، فهي وحدها التي تستطيع ان تجمد القوانين والشرائع حينما يتطلب الذود عن حياض الوطن تجميدها ، وتلقي بزمam الامور ، جميعها ، الى الاكثر جدولة بقيادة الوطن الى ميناء الخلاص ، لان هذا الهدف هو ، بلا ريب ، امنية جميع المواطنين وبغية الارادة العامة . بيد

ان هذه السلطة الاستثنائية يجب ان تزول بزوال الظروف والاضطراب التي فرضتها ، لانها ان استمرت وتمادت قد لا تلبث ان تصبح دكتاتورية وطفيانا .

### في الدين المدني

يمكننا ان نعتبر الدين ، بالنسبة الى المجتمع ، على نوعين : دين الفرد ، ودين المواطن. فالاول لا هياكل له ، ولا مذابح ، ولا طقوس ؛ انه يقتصر على عبادة الله الاعظم عبادة باطنية صرفاً ، وعلى الواجبات الاخلاقية الازلية . هذا هو دين الانجيل المحض ، وهو ما يمكننا ان نسميه الحق الالهي الطبيعي . والثاني يعطي البلد الذي يدين به آلهته ، وأوليائه ، ومعتقداته ، وطقوسه ، وعبادته الخارجية المنصوص عليها في القوانين ، ويعتبر كل من لا يدين به كافراً ، اجنبياً ، متوحشاً ، ويحصر جميع الحقوق والواجبات في شرائعه . هكذا كانت اديان الشعوب الاولى ، وهي اديان يمكننا ان نسميها الحقوق الالهية المدنية او الوضعية .

يوجد ، ايضاً ، نوع آخر من الاديان يضع للناس مشترعين اثنين ، ورئيسين ، ووطنين ، ويخضعهم لواجبات متناقضة ، وينعمهم من ان يكونوا ، في وقت

واحد ، متدينين ومواطنين . هكذا هو دين اللاما في التبت ، ودين اليابانيين ، ودين المسيحية الرومانية التي يمكننا ان نسميها دين الكاهن . ينتج من مثل هذه الاديان نوع من الحقوق المختلطة ؛ واذا نظرنا الى هذه الاديان من الوجهة السياسية ، وجدنا لكل منها عيوبه : ان كل ما ينقص الوحدة الاجتماعية لا يساوي شيئاً ، وان جميع المؤسسات التي تجعل الانسان يناقض نفسه بنفسه لاتساوي شيئاً .

نجد النوع الثاني من الدين حسناً من جهة جمعه العبادة الالهية الى حب القوانين والشرائع ، وجعله الوطن موضوع احترام فائق للمواطنين ، وتعليمهم ان خدمة الدولة هي خدمة الاله الذي تؤمن به وتلجأ اليه . انه نظام سلطة الالهية في الدولة لا حبر اعظم فيها سوى رئيس الدولة ، ولا كهنة سوى قضاتها . حينئذ يصبح الموت من اجل الدولة استشهадاً ، ومخالفة الشرائع والقوانين ، كفراً .

ولكن عيبه الأكبر هو كونه مبنياً على الضلال والكذب فيخدع البشر ويحلمهم سذجاً خرافيين ، ويفرق عبادة الله الحقيقية في خضم احتفالات وطقوس باطلة .

وعيبه الثاني هو انه، حينما يصبح متعصباً، مستبداً، يجعل  
شعبه سفاهاً لا تساهل عنده، محباً للقتل ولسفك  
الدماء، معتقداً بان كل من لا يؤمن بدينه هو كافر  
وقتله محلل بل عمل مقدس .

يبقى ، اذن ، دين الفرد او المسيحية ، لا مسيحية  
اليوم، بل مسيحية الانجيل . يكون الناس بموجب تعاليم  
هذا الدين المقدس ، السامي ، الحقيقي ، ابناء الله واحد،  
وهم جميعهم اخوة، يضمهم مجتمع لا ينحل حتى بعد  
الموت .

ولكن ، بما ان هذا الدين لا علاقة خاصة له بالهيئة  
السياسية، فهو يترك للشرائع القوة الوحيدة التي تستمد  
من نفسها ، من غير ان يضيف اليها شيئاً ، من عنده؛  
وبذلك يفقد المجتمع الخاص أحد أقوى رباطاته . وعلاوة  
على ذلك ، فان هذا الدين لا يُسهم الاسهام الكافي في  
تحبب الدولة الى قلوب بنينا بل بالاحرى ، يحاول منع  
هذه القلوب من التعلق باشياء الارض الزائلة .

يقولون لنا ان شعباً مؤلفاً من مسيحيين حقيقيين  
يستطيع ان يشكل اكمل مجتمع ممكن . فانا لا ارى  
شيئاً يحول دون صحة هذا الافتراض ، ودون تحقيقه ،

سوى صعوبة واحدة وهي ان مجتمعاً مؤلفاً من مسيحيين حقيقيين لا يستطيعه بشر ؛ واني ازيد على ذلك قولي ان مجتمعاً مثل هذا المجتمع المفترض لن يكون ، بالرغم من كماله او ، بالاحرى ، لسبب كماله ، لا المجتمع الاقوى ، ولا المجتمع الاثبت .

صحيح ان كل مواطن في هذا المجتمع يقوم بواجبه ، ويكون الشعب فيه خاضعاً للقوانين ؛ والرؤساء ، عادلين ومعتدلين ؛ والقضاة نزهاء ، اعفاء ؛ ويحتقر الجنود الموت ؛ ولن يكون ، ثمة ، فخفخة ، ولا بذخ ؛ كل ذلك حسن جداً ؛ ولكن لننظر الى أبعد . ان الدين المسيحي دين روحي صرفاً لا يهتم الا للأشياء السماوية ؛ ان وطن المسيحي ليس من هذا العالم . صحيح ان المسيحي يقوم بواجبه ويبذل جهوده في سبيله ، ولكن نجاح هذه الجهود او فشلها سيان عنده ما دام ضميره لا يبكته في شيء .

لكي يسود السلام المجتمع ويستتب الأمن فيه ، يجب ان يكون جميع المواطنين ، بدون استثناء ، مسيحيين حقيقيين ؛ ولكن ، ان 'وجد بينهم' ، لسوء الحظ ، طماع واحد ، مثل كاتيلينا الروماني ، مثلاً ، او كرومويل الانكليزي ؛ وان 'وجد بينهم' منافق واحد ،

فلا اسهل عليه من ان يخدع مواطنيه ويبتز اموالهم ،  
ويخون ثقتهم به ، لان المحبة المسيحية لا تساعد على  
الشك في حسن نية القريب ؛ وقد يتوصل الى حكمهم  
فيصبح السلطة الحاكمة التي يأمر الله باطاعتها واحترامها ؛  
واذا ظلمهم وجار عليهم ، قالوا هذه عصا الله يؤدب بها  
ابناءه ؛ واذا فكر بعضهم بالثورة عليه ، قال الآخرون :  
لا ، ان الثورة تشيع الاضطراب في البلاد ، وتريق  
الدماء ، وهذا ما يتنافى والعذوبة المسيحية ؛ وبعد كل  
شيء ، ما هم ان يكون الانسان حراً ، او مستعبداً ،  
في هذا الوادي ، وادي الدموع ؟ المهم ان يدخل الجنة ،  
والتسليم لارادة الله هو احدى الوسائل التي تنيله هذه الغاية .

في حالة حرب مع دولة معتدية ، يمشي المسيحي بلا  
عناء الى القتال ، فلا يفكر احد منهم في الفرار ؛ انهم  
يقومون جميعهم بواجباتهم ، ولكنهم يعرفون كيف  
يموتون اكثر مما يعرفون كيف يغلبون ، او كيف  
يقتلون ؛ وهذا مما يستطيع عدوهم ان يستغله الى اقصى  
حد ان كان على شيء من الدهاء . ضع إزاء مسيحيك  
تلك الشعوب التي يتآكلها حب المجد ، وضع جمهوريتك  
المسيحية ازاء جمهورية سبرطة ، او رومة ، فلن يكون

النصر ؟ انني اذكر ، هنا ، ذلك القسم المعجيب الذي حاف به جنود القائد الروماني فابيوس ، متعهدين فيه ، لا بأن ينتصروا او يموتوا ، بل بأن يعودوا منتصرين ، وهكذا فعليا . هل يمكن للمسيحيين ان يدلوا بمثل هذا القسم ؟ لا ، انهم يجربون به الله .

ولكنني اخطىء حينما اقول جمهورية مسيحية ، لان كل كلمة من هاتين الكلمتين تنفي الاخرى ، لأن المسألة المسيحية تسهل ظهور الاستبداد والطغيان ، ولأن هذه الحياة الزائلة لا قيمة لها ، بذاتها ، في نظر المسيحي ، بل قيمتها تنتج من كونها واسطة لاجل اكتساب الحياة الاخرى .

...

هم الدولة ان يكون لكل مواطن دين يدفعه الى القيام بواجباته ؛ غير ان معتقدات هذا الدين لا تهم الدولة الا بمقدار ما تتعلق هذه المعتقدات بالاخلاق وبالواجبات التي يتحتم على من يدين بها تميمها في هذه الحياة تجاه الغير ؛ اما الحياة الأخرى فلا علاقة للدولة المدنية بها .

يوجد ، اذن ، قانون ايمان مدني يحدر بالدولة ان

تحدد قضاياه ، لا بصفتها قضايا دينية بكل معنى الكلمة ، بل بصفتها عواطف اجتماعية لا يمكن للمواطن ، خارجاً عنها ، ان يكون مواطناً حقيقياً . صحيح ان الدولة لا تستطيع ان ترغم احداً على الايمان بهذه المعتقدات المدنية ، لكنها تستطيع ان تخرج من اراضيها من لا يعمل بموجبها .

يجب ان تكون عقائد الدين المدني بسيطة ، قليلة العدد ، مضبوطة المعنى ، صريحة ، من غير ما تفاسير ولا تعاليق . واليك عقائده الايجابية : وجود الالهية القديرة ، العلمية ، الصالحة ، المستدركة ، المانحة ؛ ثم الحياة الثانية ، سعادة الاخيار ، عقاب الاشرار ، قداسة العقد الاجتماعي . اما العقائد السلبية اي التي يجب نبذها فاني احصرها بواحدة : التعصب .

يخطيء من يميز التعصب المدني من التعصب الديني ، لان هذين التعصبين لا يفرقان : لا يمكنكم ان تعيشوا بسلام مع قوم يجعلهم دينهم يعتقدون بانكم من الهالكين ؛ واذا احببكم ؛ ظنوا انهم يعصون الله ، ويتحدونه ؛ لذلك يرون من الواجب إما فرض دينهم عليكم ، وإما اضطهادكم حينما يستطيعون . ثم ، لا بد للتعصب الديني ،

حيثما وُجد ، من التأثير بالحياة المدنية تأثيراً قد يجعل  
الروساء الدينيين يحلون محل الروساء المدنيين .

اما الآن ، وقد سُجِب كل دين اجتماعي تعصبي ؛  
كالذي جئنا على وضعه اعلاه ، ولم يعد المجتمع يتحمل  
مثل هذا الدين ، لذلك يجب على المجتمع ان يتسامح مع  
كل دين يتسامح مع جميع الاديان الاخرى ، و لا يحرص  
الحقيقة في معتقداته .

### إنطاق روح فبريشيوس

كان سقراط قد بدأ في اثينا ( ١ ) ، وكاتون الروماني  
الشيخ قد واصل في روما ما بدأه سقراط في اثينا :  
كان الرجلان الحكيمان يحاول كل منهما ان يصلح شعبه :  
هاجم سقراط اولئك اليونانيين المتفلسفين ، المتحذلقين ،  
الذين كانوا يخذعون البسطاء بدهائهم ، ويصرفونهم  
عن فضيلتهم ، ويفتتون في عضدهم . بيد ان الداء كان  
قد تفاقم في روما حيث كانت العلوم ، والفنون ،  
والمجادلات ، قد استفحلت : امتلأت روما فلاسفة  
وخطباء ؛ و تراخى النظام العسكري ؛ واحتقرت الزراعة ؛

---

( ١ ) من خطاب في السؤال التالي : « هل أسهمت نهضة العلوم  
والفنون في تطهير الاخلاق ؟ » .

وأهل الوطن؛ وحل اسم ابيقور، وزينون، وارسلزاس،  
حل اسم الحرية والنزاهة ، والأمانة المدنية . كان  
فلاسفتهم انفسهم يقولون : « منذ أن بدأ العلماء يظهرون  
فيما بيننا ، توارى عنا الناس الصالحون » . كان  
الرومانيون ، في الامس ، يكتفون بممارسة الفضيلة ،  
لكنهم اضاعوا كل شيء حينما اخذوا يبحثون فيها .

فبريشيوس ، فبريشيوس ! ماذا كانت قالت روحك  
الكبيرة لو عدت ، لسوء حظك ، الى الحياة ورأيت تبرج  
وجه روما التي انقذتها بذراعتك من غضب هنيبعل ،  
والتي مجّدها اسمك اكثر مما مجّدها فتوحاتها؟ انك لكنت  
هتفت : « ايتها الآلهة ! ماذا حل بتلك الاكواخ  
المتواضعة التي كانت الفضيلة تسكنها؟ ما هذه الفخفخة  
المشؤومة التي حلت محل البساطة الرومانية ؟ ما هذه  
اللغة التي لا افهمها؟ ما هذه الاخلاق المتخنثة؟ ما معنى  
هذه التماثيل وهذه الصور، وهذه البنايات؟ ايها الجبال،  
ماذا صنعتُم ؟ انتم ، يا اسياذ العالم ، لقد جعلتم انفسكم  
عبيداً لأولئك الناس المتخنثين الذين غلبتموهم ! ان الخطباء  
والفصحساء هم الذين يحكمونكم اليوم ! ألکي يثري  
المهندسون ، والرسامون ، والمشعرون ، سقيتم ارض

اليونان وآسيا بدمائكم ؟ لقد أصبحت اسلاب قرطاجة  
فريسة لتناقخ في مزمار ! ايها الرومانيون ، أسرعوا  
في هدم هذه المسارح ، وفي حطم هذا الرخام ، وفي  
إحراق هذه الصور ، وفي طرد هؤلاء العبيد الذين  
اخضعتموهم بحمد السيف ، والذي افسدتم فنونهم  
المشؤومة . لتلمع اياد غير اياديكم بالفنون الباطلة ، ان  
الفن الوحيد الذي يليق بالروماني هو فن فتح العالم لكي  
تسود فيه الفضيلة : حينما ظن سينياس مجلس شيوخنا  
مجلس ملوك ، لم تكن قد بهرتهم فخفخة باطلة ، او  
فصاحة منمقة . ماذا رأى سينياس ، اذن ، في مجلس  
شيوخنا من عجب ؟ ايها الرومانيون ! لقد رأى مشهداً  
لا تستطيع ان تأتي به ثرواكم وفنونكم ؛ لقد رأى اجمل  
مشهد ظهر تحت السماء : ندوة مؤلفة من مائتي رجل  
فاضل ، جديرين بقيادة روما ، وبحكم الأرض .

ولكن ، تعالوا نتخطى ، نحن ، ابناء اليوم المسافات  
والأزمنة لكي نرى ماذا جرى في اقطارنا وعلى مرأى  
من اعيننا . لم الجأ ، عبثاً ، الى مناجاة روح فبريشيوس  
لأنني ، بماذا كنت استطيع ان أنطق هذا الرجل العظيم ،  
ولا استطيع ان أنطق به لويس الثاني عشر ، او

هنري الرابع ؟ صحيح ان سقراط لم يكن 'محكم' عليه بشرب سم الشوكران في ايامنا هذه ، لكنه كان شرب ، في كأس اشد مرارة ، السخرية المهينة ، والاحتقار الذي هو ابشع من الموت .

هكذا كان البذخ ، والانحلال الاخلاقي ، والانفاس في الشهوات المتفننة ، في كل عصر ، عقاب الجهود المتكبدة التي بذلناها في سبيل الخروج من البساطة السعيدة حيث كانت الحكمة الازلية قد وضعتنا . ان الفناء الكثيف الذي ألقته هذه الحكمة على كل ما تضعه يبدو كأنه تحذير تبين لنا فيه انها لم تهيننا لاجاث باطلا .

ولكن ، هل أفدنا من اي درس لقتلنا اياه هذه الحكمة ؟ ام هل أهملنا العمل بموجب اي درس من دروسها ولم نلق عقابنا ؟ يا شعوب الارض ، اعلمي ، ولو مرة واحدة ، ان الطبيعة شاءت ان تبعد عنا خطر العلم كالأم التي تنتشل سلاحاً خطراً من يد ولدها ؛ وان الاسرار التي تخفيها عنا ليست سوى مهارٍ تريد ان تكفيها شرها ؛ وان العناية الذي تلقاه في تحصيل العلوم هو منة علينا منها . اجل ، ان الانسان ناقص ، لكنه ، لو وُلد عالماً ، لكان اشد نقصاً .

## خطر الفلسفة

ان التعمق في الفلسفة (١) يقضي الى تراخي رباطات الاحترام والاكترام بين البشر ، هذه الرباطات التي تصل الناس بالمجتمع . هذا هو خطر الفلسفة : ان من تعلق بالفلسفة تفردت الفلسفة بارضائه . ثم ان الفيلسوف الذي يبذل جهده في سبر غور البشرية ، وفي مراقبة الناس ودرس احوالهم واخلاقهم ، يتعلم ألا يقدرهم الا قدر ما يستحقون ، اي الشيء القليل ؛ ولا شك في ان الانسان لا يستطيع ان يحب ما يحقره . ثم ، ان الفيلسوف لا يلبث ان يجمع في شخصه ما يتقاسمه الناس الصالحون فيما بينهم وبين بني جنسهم . ان احتقار الفيلسوف للآخرين يزيد في كبرياء نفسه وفي فراغ قلبه من العواطف الانسانية : فالحب ، والعائلة ، والوطن ، تصبح ، في نظره ، كلمات فارغة من المعنى : ليس الفيلسوف نسيباً ، ولا مواطناً ، ولا انساناً ؛ انه فيلسوف .

---

(١) من مقدمة كتابه: « نرسيس » ( Narcisse ) .

## مصدر اللغة

ان لغة (١) الانسان الاولى ، اللغة الاكثر شمولاً ،  
والاكثر قوة ، اللغة الوحيدة التي افنقر اليها قبل افتقاره  
الى اقناع البشر مجتمعين ، هي هتاف الطبيعة . بما ان  
هذا الهتاف كان ينبعث عن شبه غريزة ، خلال الظروف  
الملحة ، طلباً للنجدة في الاخطار الجسيمة ، او تفريخاً  
عن النفس في الآلام الحادة ، لذلك لم يكن يُستعمل الا  
نادراً في مجرى الحياة العادية والاكثر رقابة ؛ ثم ، حينما  
بدأت افكار البشر تنتشر وتتكاثر ، وبدأت المواصلات  
والعلائق تنمو بينهم ، اخذوا يبحثون عن علامات تفاهم  
أعم ، وعن لغة اكثر شمولاً ، فزادوا زبرات الصوت  
تعداداً و اضافوا اليها الاشارات التي هي ، من طبيعتها ،  
اكثر تعبيراً . كانوا هكذا ، يعبرون عن الاشياء المنظورة ،  
المتحركة ، بواسطة الاشارات ؛ وعن الاشياء التي تتناول  
السمع ، بواسطة اصوات مماثلة : ولكن ، بما ان الاشارة  
لا تدل الا على الاشياء الحاضرة او السهلة الوصف ، وعلى  
الاعمال المنظورة ؛ وبما ان استعمال الاشارة ليس شاملاً  
لان الظلمة ، أو أي حجاب آخر ، يجعل الاشارة  
(١) من خطاب في موضوع السؤال التالي : « ما هو مصدر التفاوت  
بين البشر وهل تجيز سنة الطبيعة هذا التفاوت ؟ »

معدومة الفائدة ، لذلك اضطروا الى الاستعاضة عنها بتعدد نبرات الصوت بالرغم من انها ليس لها ذات العلاقة مع بعض الافكار ، لكنها اجدر بتمثيلها جملة . بيد ان هذا التحول لم يمكن حصوله الا باتفاق مشترك ، وباصطلاح عام ، وبصعوبة وعناء لأن السنة البشر كان ينقصها التمرن على النطق ، وكان ينقص ادمغتهم التمرن على التصور ، وكذلك لان هذا الاصطلاح العام كان لا بد له من ضرورة ماسة تحتمه .

### وضع الانسان البدائي

ان اول انسان أحاط قطعة من الارض بسياج وقال : « هذا ملكي » ووجد اناساً بسطاء صدقوا بما قاله لهم ، ان هذا الانسان هو مؤسس المجتمع المدني . فلو ان احداً أقدم ، آنذاك ، على هدم هذا السياج هاتفاً بابناء جنسه : احذروا من ان تصدقوا كلام هذا المشعوذ المكار ، ولا تتسوا ان ثمار الارض للجميع وان الارض ليست لاحد ، فكم كان وفر على البشرية من جرائم ، وحروب ، وقتل ، وشقاء ، وفظائع ! ولكن هذا لم يكن بالمستطاع لسبب تطور اوضاع البشر الذي افضى الى وجوب خلق الملكية الفردية ،

وهو تطور انضجته اجيال من التقدم الصناعي ،  
والعلمي ، والاجتماعي .

ان اول احساس شعربه الانسان الاولي كان احساسه  
بوجوده ، واول اهتمام أثار نشاطه ، كان اهتمامه بحفظ  
كيانه . كانت الارض تنتج له كل ما يحتاج اليه فتدفعه  
غريزته واحتياجاته الحياتية الى الافادة منه . وكان من  
بين غرائز هذا الانسان غريزة التناسل ؛ لكنها كانت ،  
بادئ ذي بدء ، غريزة حيوانية ، خالية من العواطف  
القلبية ، ومن الحب الثابت . كانت الأم ، حينها يشب  
ولدها عن الطوق ، وتركه وشأنه .

هذا كان وضع الانسان البدائي ؛ وهذه كانت حياة  
حيوان عاقل ، مقتصر على الاحساسات المحضة ، فيكاد  
لا يفيد الا القليل القليل من المواهب التي اودعتها  
الطبيعة نفسه البشرية .

### حق الملكية الفردية

تلا حرثة الارض تقسيمها حتماً ، وتلت حق  
الملكية المسلّم به قواعد العدالة : لانه يقتضي ، لكي  
تعطي العدالة كل واحد حقه ان يكون لكل واحد شيء  
ما . يُضاف الى ذلك ان الناس ، حينما شرعوا بالالتفات الى

المستقبل ، وبالتخوف من ضياع ما يملكون ، أصبحوا يخشون على مقتناتهم من آثار الآخرين ان هم اعتدوا على مقتني الآخرين . لا يمكننا ان نتصور مصدراً آخر للملكية الفردية الناشئة ، سوى مصدر اليد العاملة ، ولا شيء سوى ذلك . ان عمل اليد الزراعي كان ، في بدء الملكية ، الثمن الوحيد الذي يستطيع الانسان ان يدفعه عن امتلاكه للأرض أو ، على الأقل ، بادىء ذي بدء ، عن استغلال ما زرعه ، وذلك سنة بعد سنة ، حتى سلّم له بالملكية في آخر الامر .

• • •

وطالما قنع الناس الاولون باكواخهم البدائية ، وطالما اقتصروا على لبس جلود الحيوانات ، وعلى التزين بالريش والاصواف ، وعلى التدقيق في صنع اقواسهم ونبالهم ، وبالاختصار ، طالما لم يهتموا بالاعمال يستطيع واحد بمفرده ان يعملها ، فقد عاشوا احراراً ، سليمي الاجسام ، صالحين ، سعداء ، بقدر ما تسمع لهم حالتهم الطبيعية ؛ ولكن ، منذ ان احتاج بعضهم الى معونة بعض ، ومنذ ان تبين لهم انه من المفيد ان يكون الواحد ذخيرة تكفي اثنين ، فقدت المساواة من بينهم ،

ودخلت الملكية الفردية حياتهم ، واصبح العمل لازماً ،  
فتحولت الغابات الواسعة الى حقول ضاحكة سقامها  
البشر معرق جباههم ، وحصدوا ، مع غلالها ،  
العبودية والشقاء .

كان اكتشاف الزراعة وصناعة الصلب هو الذي  
احدث هذا التطور الكبير . يقول الشعراء ان الذهب  
والفضة هما اللذان حضرا الناس واشقيا الجنس البشري ؛  
اما الفلاسفة فيقولون ان الحديد والخنطة هما اللذان  
فعلا ذلك . فقد ظل متوحشو امريكا على حالتهم  
الاولى لانهم ظلوا يجهلون صناعة الحديد وزراعة الخنطة ؛  
وكانت اوروبا اكثر تنظيماً من سائر اقطار العالم ، في  
العصور الحاضرة ، لانها اوفر هذه الاقطار حديدأوخنطة .

### في الحرية

كما ينفر الفرس غير المروض ، ويضرب الارض  
برجله حينما يرى اللجام يقترب من فمه ، بينما الفرس  
المروض يحنل ، بصبر ، السوط والمهماز ، كذلك تعصى  
عنق الانسان غير المتحضر على النير الذي يحني له  
الانسان المتحضر عنقه من غير تدمير ، فيفضل الاول  
الحرية الاشد مشقة على الخضوع الاكثر راحة . لا

نستطيع ، اذن ، ان نحكم على مؤهلات الانسان الطبيعية للحرية او للاستعباد استناداً الى الخطا الشعب المستعبدة ، بل ، بالاحرى ، استناداً الى الكفاح المستميت الذي خاضت غماره جميع الشعوب الحرة ذوداً عن حريتها . اعرف جيداً ان الشعوب المستعبدة تميل الى مديح السلام والأمان اللذين تتمتع بهما في قيودها ؛ ولكن ، حينما ارى تلك الشعوب التي تضحي بالملذات ، وبالراحة ، وبالأموال ، وبالحياة نفسها في سبيل الحفاظ على هذه الحرية المعبودة التي يحتقرها اولئك الذين أضاعوها ، وحينما ارى تلك القبائل البدائية تحتقر ، في عريها ، البهارج التي يأتونها بها الاوروبيون ، وتتحدى الجوع ، والنار ، والحديد ، والموت دفاعاً عن استقلالها ، حينئذٍ اعلم ان العبيد غير جديرين بالتكلم عن الحرية .

### الانسان صالح بطبيعته

لنصلح أعماق انفسنا ، يا صديقي ' الشاب ، لكي نرى ، بعيدين عن كل غرض شخصي ، الى اي

---

( ١ ) من كتاب روسو : « اميل » ؛ ( قانون ايمان النائب الاسقفي السافري ) .

شيء تدفعنا أميالنا؟ اي مشهد يطيب لنا اكثر : أعذاب الآخرين ام هناؤهم ؟ اي شيء يلذ لنا ان نعمل فيترك لنا أطيب الذكرى : أعمل خير واحسان ، ام عمل شر واذية ؟ لأي الاشخاص نتحمس على مسارحنا : للمجرمين الانانيين ام للأخيار الصالحين ؟ للأمنين للصدقة والانسانية ام للذين يضربون بهما عرض الحائط؟ ألا يطيب لنا ان نتقاسم أفراحنا مع بني جنسنا ؟ لو كان قلب الانسان فارغاً من الاخلاق، فمن اين تأتية هذه الحماسة للاعمال البطولية ، وما شأن هذه الحماسة مع مصلحته الخاصة ؟ لماذا أفضّل ان اكون كاتون شاقاً امعاءه حزناً على الحرية المغلوبة ، على ان اكون قيصر الغالب ؟ انزعوا من قلوبنا حب الجمال فتزعوا منها لذة الحياة. ان الانسان الذي خنقت اهواؤه المنحطة العواطف الرقيقة في نفسه الضيقة ، والذي جرتة انانيته الى عبادة شهواته السافلة ، لا شك في انه فقد كل حساسة نبيلة ، وتحجر قلبه فلم يعد يخفق لأي شيء مفرح ، او ينبض بأية عاطفة سامية ؛ لقد فقد الشقي شعوره وغاية حياته وأصبح في عداد الأموات .

مهما كثر عدد الاشرار على الارض ، تظل ضئيلة

العدد تلك النفوس النتنه التي فقدت كل شعور بما هو عادل وصالح . لا يحلو الظلم الا للذين يفيدون منه ويرغبون في الافادة منه ؛ اما الباقيون ، فانهم جميعهم يريدون حماية البريء ، ونفي العنف ، والدفاع عن المظلوم ، ويفرحون باعمال الرحمة ، ويعجبون للنفوس الكريمة . ماذا تهمني الجرائم التي اقترفها كاتيلينا في روما منذ الفي سنة ؟ ولماذا استفظعها كأنها حدثت اليوم ؟ نحن لا نكره الاشرار لحوفنا من الحاقهم الضرر بنا ، بل لانهم اشرار .

لا شك في اننا نريد ان نكون سعداء ، لكننا نريد ، ايضاً ، ان يكون الآخرون سعداء حينما لا تحول سعادتهم دون سعادتنا . ان كانت سعادتهم لا تنزع شيئاً من سعادتنا ، فانها تزيدنا . ثم اننا نشفق ، من طبعنا ، على الأبرياء التعساء ؛ وحينما نشاهد آلامهم ، نتألم لهم ومعهم . لا يمكن للانسان ، مهما تصلب قلبه ، ان يفقد كل عاطفة رحمة ، وكل شعور انساني .

يتحدث الناس عن وخز الضمير الذي يعاقب ، في الخفاء ، الجرائم المستترة ، وغالباً ما يفضحها . آه !

من منا لم يسمع صوت هذا الضمير الديان ؟ اننا نتحدث عنه عن اختبار ، ونريد ان نخلق في انفسنا هذه العاطفة المستبدة التي تعذبنا . أطيعوا الطبيعة فتعلموا بآية عذوبة تلك عليكم ، واي رضى عن انفسكم تتذوقونه بعد ان تصفوا الى أوامرها ونواهيها . الشرير يتهرب من نفسه طلباً للراحة وللتلهي خارجاً عنها ؛ بيد ان ملهاته الوحيدة هي الضحكة الساخرة . اما الانسان الصالح ، فغبطته في داخله : ليست السخرية مصدر ضحكه ، بل الفرح النابع من نفسه الصافية ، الفرح الذي يبلغه الى من هم حوله .

. . .

يوجد ، اذن ، في اعماق انفسنا البشرية مبدأ عدل غريزي نحكم بموجبه على صلاح اعمالنا واعمال غيرنا ، او على طلاحها ؛ وهذا المبدأ هو ما أسميه الضمير .

### الضمير

وجودنا يعني احساسنا <sup>١</sup> ؛ فاحساسنا ، اذن ، سابق لفهمنا ، وعواطفنا سابقة لافكارنا . مهما كانت علّة

---

(١) من كتاب روسو «اميل» ، (قانون ايمان النائب الاسقفى السافوي) .

وجودنا ، فقد منحتنا هذه العلة ، بغية حفظ كياننا ،  
عواطف معينة تلائم طبيعتنا ، ولا يمكن لاحد ان ينكر  
ان هذه العواطف ولدت معنا . انها ، بالنسبة الى الفرد :  
حب النفس الشرعي ، والخوف من الألم ، واستفطاع  
الموت ، والرغبة في الهناء . ولكن ، ان كان الانسان  
كائناً اجتماعياً من طبيعته او ، على الاقل ، مؤهلاً لان  
يكونه ، فلا يمكنه ذلك الا بواسطة عواطف اخرى هي ،  
ايضاً ، غريزية بالنسبة الى النوع البشري ؛ اما بالنسبة  
الى الحاجة المادية فحسب ، فانها جديرة بتفرقة الناس  
بدلاً من جمعهم . فالدافع الوجداني ، او الضمير ، يتولد ،  
اذن ، من الجهاز الاخلاقي الذي يتألف من هذه العلاقة  
المزدوجة : علاقة الانسان بنفسه وبأبناء جنسه . ليس  
للانسان علم غريزي بالخير ولكن ، حالما يكشفه عقله  
له ، يدفعه ضميره الى محبته ، وهذا الدافع هو الغريزي .  
لنقتصر ، اذن ، على الدوافع الاولى الكامنة في طبيعتنا  
لان الدرس يرجع بنا ، دائماً ، اليها .

ايها الضمير ، ايتها الغريزة الالهية ، ايها الصوت  
السمائي الخالد ، ايها الدليل الامين لكائن جاهل  
ومحدود ، مدرك وحر ؛ ايها القاضي المعصوم الذي

يفصل بين الخير والشر ويجعل الانسان شبيهاً بالله ، انت ، وحدك ، الذي ترفع طبيعة الانسان ، وانت ، وحدك ، الذي تميزه من البهائم ، لانه لا يجد في نفسه ، خارجاً عنك ، سوى المقدرة المؤسفة على التيهان من ضلال الى ضلال وراء إدراك بلا هادٍ ، وعقل بلا مبادئ .

ها نحن ، بحمد الله ، قد تخلصنا من كل هذه الأداة الفلسفية الهائلة : اننا نستطيع ان نكون بشراً من غير ان نكون علماء . لقد أعفينا من هدر ايام حياتنا في درس الاخلاق لان لنا دليلاً هادياً يهديننا ، بجانبنا ، في مآتيه الآراء البشرية المترامي الاطراف . ولكن ، لا يكفيننا ان يكون لنا دليل ، بل علينا ان نعرفه ونتبعه . فان كان يتحدث الى جميع القلوب فلماذا لا يصغي اليه الا القليل من البشر ؟ ذلك لانه يكلمنا بلغة الطبيعة ، هذه اللغة التي ينسينا اياها كل شيء : فالتقليد الاعمى هو اكبر عدو للضمير الذي يهرب منه او يسكت امامه ؛ والتعصب يزيفه ويملي الجريمة باسمه . ثم انه ييأس ، اخيراً ، منا لكثرة ما نصرفه بخشونة فلا يعود يكلمنا ، ولا يحيننا ، بل يغادرنا فاقداً كل ثقة بنا .

## الرجل الحكيم في الضيق

في جميع الشروء التي تنتابنا<sup>١</sup> نحن ننظر الى النية اكثر مما ننظر الى النتيجة : ان آجرة تسقط من علو سطح يمكنها ان تخرجنا اكثر من حجر تقذفنا به يد بغیضة ؛ ومع ذلك ، فان هذا الحجر يغضبنا اكثر مما تبغضنا تلك الآجرة . يمكن للضربة ان تحطىء هدفها ، ولكن النية لا تخطئه ابداً . ان الألم الجسدي هو الذي نشعر به الشعور الاقل في البلوى ؛ وحينئذ لا يجد المبتلون من ينحون عليه باللائمة ، فانهم يلومون الحظ فيجعلونه شخصاً له عينان ، وفهم ، وارادة ، قاصداً تعذيبهم . لكن الرجل الحكيم الذي لا يرى في البلايا التي تنتابه سوى ضربات القدر الاعمى ، فانه يظل هادئاً الاعصاب محتملاً آلامه بصبر . يتألم جسده ، لكن نفسه تظل ساكنة .

ان الرجل الحكيم الذي يتوصل الى قطع هذا الشوط من الحكمة يكون قد احرز تقدماً كبيراً ، لكن هذا التقدم وحده لا يكفي : لقد أوقف الداء ، لكنه لم يستأصل . شأفته ، لأن هذه الشأفة ليست في الكائنات

---

(١) من كتاب روسو: « تأملات منزّه معتزل » (الزهوة الثامنة) .

الخارجة عنه بل في داخل نفسه . اليك ما أحسسته تمام  
الاحساس منذ ان بدأت اعود الى نفسي : بما ان  
عقلي لم يكن يجد شيئاً من الصحة ، ولا من النطق ، في  
جميع التأويلات التي كنت اعلل بها ما كان يحصل لي  
من الشدائد ، فقد علمت ان هذه الأسباب التي اجهلها ،  
والتي لا استطيع ان اتبينها ، يجب ان تكون لغواً في  
نظري وتجاه نفسي ، وقدرأ اعمى لا توجيه فيه ، ولا  
نية ، ولا قصد ، ولا حيلة لي به ؛ لذلك ، يجب علي  
ألا اقف على البحث في اسبابه الطاقة الباقية لي لاجل  
احتمال ضرباته . هذا ما كنت اعظ به نفسي ، وما  
كان يسلم به عقلي وقلبي ؛ ومع ذلك فقد ظلت اسمع  
قلبي يتدمر في داخلي . فمن اين كان يأتي هذا التدمير ؟  
لقد بحثت عن مصدره فعثرت عليه : لقد كان يأتي من  
الانانية التي لا تبرح تدين البشر وتترفع على العقل .

لم يكن هذا الاكتشاف سهلاً بقدر ما يُظن . بيد ان  
اعتبار الذات هو المحرك الاقوى الذي يحرك النفوس  
الأبية ؛ بينما الانانية ، التي تغمرها الأوهام ، تتنكر لذاتها  
وتوهم انها هي ذلك الاعتبار ؛ ولكن ، الى حين .

كنت ، دائماً ، انفر من الانانية ؛ وبالرغم من ذلك ،

فقد بُليت بها زمناً ، ولا سيما يوم أصبحت مؤلّفاً .  
غير ان الدروس القاسية التي لقنني اياها الدهر اعادت  
انانيتي الى حدودها الاولى : لقد شرّعت ، بادىء  
ذي بدء ، بالتمرد على الظلم ، لكنها انتهت الى احتقاره ،  
وحينما عدت الى نفسي ، وقطعت علائقي الخارجية التي  
كانت تجعل انانيتي كثيرة المطالب ، وعدلت عن  
المقارنات ، والمفاضلات ، اكتفت انانيتي بان اعتبر نفسي  
امام نفسي . حينئذٍ أصبحت هذه الانانية محبة النفس  
الشرعية ورجعت الى نظام الطبيعة ، خالعة عني نير ما  
يقوله الناس عني .

منذ ذاك الحين عاد السلام ، وحقى الهناء ، الى نفسي ؛  
لأننا ، يوم تغلب على الخوف مما يقوله الناس عنا ، وندع  
العقل يتكلم ، فان هذا العقل يعزينا ، اخيراً ، عن  
جميع الشدائد التي لم يكن باستطاعتنا ان نتجنبها ، بل  
يلاشي مفعولها حيناً لا يقع علينا هذا المفعول مباشرة ،  
وذلك بصرف افكارنا عنها : فالاهانات ، والانتقامات ،  
والاعتداءات ، والشتائم ، والمظالم ، لا تُعد شيئاً ازاء من  
لا يرى في الشرور التي تسببها له سوى الشر ، لا النية ،  
وازاء من لا يتوقف مقامه في اعتبار نفسه على إرادة  
الآخرين .

كيفما اراد الناس ان يروني ، فانهم لا يستطيعون  
 ان يبدلوا ما انا عليه ، وبالرغم من جميع قواهم ، ومن  
 جميع مؤامراتهم الخفية ، فاني اظل ، مهما فعلوا ، انا انا .  
 صحيح ان استعداداتهم نحوي تستطيع ان تؤثر بوضعي  
 الحقيقي : فالجدار الذي اقاموه بينهم وبينني يمنع عني كل  
 مصدر رزق وكل عون في شيخوختي : لم يبق بينهم  
 وبينني لا معاطاة ولا تعاون متبادل ، ولا مواصلات ،  
 ولا مراسلات . لقد اصبحت وحيداً بينهم ، وعلي وحدي  
 اصبح اعتمادي ، وانا في شيخوختي وضعفي . كبيرة هي هذه  
 المصاعب ، لكنها فقدت شدتها على نفسي منذ ان  
 عرفت كيف احتملها من غير حنق . ان الخوف من  
 المستقبل يضاعف الهموم ويزيد الشقاء شقاءً ؛ اما انا فهما  
 ظهر لي وجه المستقبل كالخاء ، فاني تكفيني راحة الساعة  
 التي انا فيها . لم يعد للألم الذي اتوقعه تأثير بنفسي ، بل  
 الألم الذي اشعر به الآن فحسب ، وهذا ما يجعل وقعه  
 علي خفيف الوطاء . ها انا وحيد ، ومريض ، ومتروك من  
 الجميع على سريري حيث يمكنني ان اقضي نحيبي من  
 العوز ، والبرد ، والجوع ، من غير ان يهتم لي احد .  
 ولكن ، ما هم ، ان كنت انا نفسي لا اهتم لنفسي مهما  
 كان مصيري ؟ اقليل اني تعلمت ، ولا سيما في سني ، ان

ارى الحياة والموت ، والمرض والعافية ، والغنى والفقر ،  
والمجد والعار ، بنفس اللامبالاة ؟ بيد ان هذه اللامبالاة  
الثمينة ليست صنع حكمتي بل صنع اعدائي الذين  
أعاضوني بها من الاذية التي ألحقوها بي ، حينما جعلوني لا أبالي  
بهذه الاذية ، فقد أحسنوا الي بها اكثر مما لو لم يلحقوها  
بي : كان يمكنني ان اخافها قبل ان احتلها ؛ لكنني  
بعد ان تغلبت عليها ، لم أعد اخشاها .

- H. HOFFDING, *Rousseau et sa Philosophie*, 1912.
- R. HUBERT, *Rousseau et l'Encyclopédie, Essai sur la formation des idées politiques de Rousseau (1742-1756)*, Paris. 1928.
- JULES LEMAITRE, J.-J. Rousseau, Paris, 1907.
- P. M. MASSON, *La religion de Rousseau*.
- J. MOREL. *Rechrcbes sur les sources du discours de J.-J. Rousseau sur l'origine et les fondements de l'inégalité*, Lausanne, 1910.
- L. PROAL, *La psychologie de J.-J. Rousseau*, Paris-1928.
- Revue de Métaphysique et de morale*. XX, 1912 (articles de BOUTROUX, HOFFDING, PARODI, BOSANQUET, JAURÈS, STAMMLER, CLAPARÈDE, LÉVY-BRUHL, BENRUBI, DWELSHAUVERS).
- A. SCHINZ, *La question du Contrat social* (*Revue d'histoire littéraire*, 1912, cf. G. BEAULAVON, *La question du Contrat social : une fausse solution*, même revue. 1913) ; *La pensée religieuse de Rousseau et ses récents interprètes*, Paris, 1927 ; *La pensée de J.-J. Rousseau*, Paris 1929.
- J. VU Y, *Origine des idées politiques de J.-J. Rousseau*, 2<sup>e</sup> éd., Genève et Paris, 1889.
- Ch. WERNER, *Études de philosophie morale*, Genève, 1917.

## مراجع الكتاب

### BIBLIOGRAPHIE

- BALDENSBERGER, BEAULAVON, BENRUBI,  
BOUGLÉ, A. CAHEN, DELBOS, DWELSHAU-  
VERS, GASTINEL, MORNET, PARODI, VIAL,  
J.-J. Rousseau, leçons faites à l'École des Hautes  
Études sociales, Paris, 1912.
- G. BEAULAVON, Le système politique de J.-J. Rous-  
seau (Revue de Paris, avril 1907).
- BOUVIER, J.-J. Rousseau, Genève, 1912.
- E. DURKHEIM, La pédagogie de Rousseau (Revue  
de métaphysique et de morale, 1919).
- ESPINAS, Le système de J.-J. Rousseau (Revue de  
l'Enseignement, 1895-1896).
- E. FAGUET, Rousseau penseur, Paris, 1912.
- W. FRAESSDORF, Die psychologischen Anschauun-  
gen J.-J. Rousseau's und ihre Zusammenhang mit  
der französischen Psychologie des XVI-XVIII  
Jahrhunderts, Langensalza, 1929.
- H. GILLOT, La Pensée de Jean-Jacques Rousseau,  
Courville, 1935.

# فهرست



ص

٧

## حياته

- ١ - روسو حتى ذهابه الى باريس ص ٨
- ٢ - باريس : التأليف الاولى ص ٢٦
- ٣ - من خطاب «في العلوم والفنون»  
حتى المنفى ص ٣٤
- ٤ - المنفى والايام الاخيرة ص ٢ ؛

٥١

## فلسفته

١٠٤

## آثار روسو الادبية

١٠٧

## منتخبات

- موضوع الجزء الاول ص ١٠٧
- في حق الاقوى ص ١٠٨
- في العبودية ص ١١٠
- في وجوب الرجوع ، دائماً ،  
الى اتفاق اولي ١١٣
- في الميثاق الاجتماعي ١١٤

- في القانون ١١٦  
 في المشترع ١١٧  
 في الشعب ١١٨  
 في انواع التشريع المختلفة ١٢٠  
 في الحكومة اجمالاً ١٢١  
 في الديوقراطية ١٢٢  
 في ان وضع كل بلد يتطلب شكل  
 حكومة خاص به ١٢٤  
 في ان الارادة العامة هي اساس الحكم ١٢٥  
 في الدكتاتورية ١٢٧  
 في الدين المدني ١٢٨  
 انطاق روح فبريشيوس ١٣٥  
 خطر الفلسفة ١٣٩  
 مصدر اللغة ١٤٠  
 وضع الانسان البدائي ١٤١  
 حق الملكية الفردية ١٤٢  
 في الحرية ١٤٤  
 الانسان صالح بطبيعته من ١٤٥  
 الضمير من ١٤٨  
 الرجل الحكيم في الضيق من ١٥١

# ROUSSEAU

*SA VIE*

*SON ŒUVRE*

*SA PHILOSOPHIE*

**EDITIONS OUEIDAT**

Beyrouth - Paris





## زحني علما

- آداب الهند / لويس رونو (١٦٦) .....
- الاتجاهات الأدبية الحديثة / أليريس (١٥٥) .....
- الأدب الألماني / جوزف فرنسو انجيلوز (١١١) .....
- الأدب الأمريكي / جاك فرديناند كاهن (١٥٢) .....
- الأدب السوفياتي / آلان بريشاك (١٥٩) .....
- الأدب الصيني / أوديل كالتنمارك (١٧٤) .....
- الأدب الإيطالي / بول أريتي (١٣٠) .....
- الأدب الرمزي / هنري بير (٢٧) .....
- الأدب الطبيعي / بيار كوني (٦٩) .....
- الأدب المقارن / ماريوس فرنسو غويار (١٠) .....
- الأدب اليوناني / فرنان رويير (١٩٤) .....
- أدباء من الشرق والغرب / الدكتور عيسى الناعوري (٦) .....
- الأسطورة / ك. ك. راثين (١٠٣) .....
- بحوث في الرواية الجديدة / ميشال بوتور (٢٠٢) .....
- الدراما والدرامية / سن. و. داوسن (١٤٩) .....
- دستوبفسكي / اندريه جيد (١٧) .....
- دفاعاً عن الأدب / كلود روي (١٠٠) .....
- الرواية البوليسية / بيار بولو وتوماس نرسجك ( ) .....
- روسو / اندريه كريسون (٢٦) .....